رواية كائن مؤجل

فهد العتيق

الناشر : المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت
2004 م

إلى ابنتي غادة..

وإلى ابني بدر..

وإلى براري نجد العظيمة.

محاولة صغيرة للاقتراب من

الكائن المؤجل فينا جميعاً.

السيرة الأدبية للقاص والروائي فهد العتيق

Fahd al atiq

قاص وروائي / ولد في الرياض 1960م – السعودية

عمل في الكلية التقنية بالرياض بعد حصوله على دبلوم فني عالي في العمارة ...

بدأ الكتابة في عام 1983م .

لاقت روايته المعروفة كائن مؤجل الصادرة عام 2004 م عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر حفاوة كبيرة من الكتاب والنقاد والقراء وكتب عنها الأدباء والنقاد عدة دراسات نقدية في الصحف والمجلات العربية , وقد حققت مبيعات عالية في معارض الكتب المختلفة .

قامت الجامعة الامريكية بالقاهرة بترجمة رواية الكاتب كائن مؤجل الى اللغة الانجليزية عام 2011م , كما تُرجمت قصصه إلى الانجليزية والفرنسية عام 1993م ، عن طريق مجلة لوتس مجلة اتحاد كتاب أسيا وإفريقيا , ، كما تم ترجمة فصول من روايته كائن مؤجل عام 2008م الى الانجليزية من طريق مجلة (بانيبال) وهي مجلة الأدب العربي الحديث وتصدر من لندن .. وكتب بعض الأدباء والنقاد العرب عن قصص (إذعان صغير) و(أظافر صغيرة) ورواية (كائن مؤجل) في الصحف العربية ، باعتبارها من التجارب السردية المختلفة و المميزة على المستوى العربي...

الكتب التي صدرت:

9) الملك الجاهلي يتقاعد , رواية 2014 م .. المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت

8) قامت الجامعة الامريكية بالقاهرة بترجمة رواية كائن مؤجل الى اللغة الانجليزية وقد صدر الكتاب بعنوان life on hold..

7) كمين الجاذبية /المجموعة القصصية السادسة, قصص قصيرة جدا ونصوص , عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر /بيروت2007 م

6) هي قالت هذا/ المجموعة القصصية الخامسة , وتضم أيضا مختارات من الكتب السابقة ولحظات نقدية , عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر /بيروت2007 م .

5) كائن مؤجل / رواية, 2004 م, المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت .

4) أظافر صغيرة وناعمة/ المجموعة القصصية الرابعة, عن النادي الأدبي بجدة عام 1997م, وعن مختارات فصول بالقاهرة عام 2000م

3) إذعان صغير/ المجموعة القصصية الثالثة, عن مختارات فصول بالقاهرة / الهيئة المصرية العامة للكتاب, عام 92م

2) عرض موجز/ المجموعة القصصية الثانية, إصدار خاص بالرياض عام 90م

1) مسافات للمطر/ المجموعة القصصية الأولى, جمعية الثقافة والفنون بالرياض عام 85م

fahdateq@windowslive.com

فصول الرواية كائن مؤجل

جسد وروح

الأيام تتشابه هنا..

لكن حصة المسرح أفضل من حصة الرسم..

ربما..

في حصة الرسم بالابتدائي, رسم وجهاً لبنت بجديلة قصيرة, وقف المدرس على رأسه, ثم وضع علامة (ضرب) على رقبة البنت.

تلك البنت ذات الجديلة, هي سبب وخز ضميره المستمر, إنها التي ذات ليلة ظلماء ذهب إلى ظلامها, لا يحمل سوى عينيه وأصابعه, ليتلمس جسدها الصغير, كانت مستكينة, وكان خائفاً, ولا يعرفان ماذا حدث, في تلك الليلة التي رقصت طفولتها طويلاً, على أعتاب شيء جديد, وفي ظلال موسيقى ليلة شبقة.

ومرة رسم شمساً وقمراً, في لوحة واحدة.

ضحك الأستاذ:

- هذا لا يحصل أبداً يا ولدي..

في مسرح الجامعة, مثّل نصاً مُترجماً, مع زملائه, عن الذئاب الكبيرة التي تنهب الوطن, فأغلقوا المسرح للصيانة, وحين كتب عن وخز ضميره الذي أمرضه, وأرسل ما كتبه للجريدة, قالوا لا تصلح للنشر لأنها خيالية.

الأيام تتشابه بالتأكيد..

والحقيقة تظل هاربة.

بالذات الآن, في هذا العصر, كل شيء في حالة هروب.

الأيام تتشابه في مللها ورتابتها, في هذه المدينة المتحجبة, منذ عصور قديمة وحتى الآن.

حتى الوجوه تتشابه, وكل يحدق في وجه الآخر بلا هدف. لكن ما خلف كل هذه النظرات, كل هذه الحجابات..

كان على وشك النوم, حين أكمل خاله قصيدة أحمد مطر, وطني طفل كفيف. وفي الصباح, ساحة البيت ملونة بالطباشير, والوقت ضحى طازج, وأنفاس تتردد بين جدران قديمة, شمس حمراء دافئة مرسومة على الوجوه النائمة, طفلة تحبو بملابس واسعة.

كيف أحببت هذا المكان, كيف كرهت هذا المكان. لا يعرف?!

يخرج من الغرفة الضيقة, يرى ساحة البيت الملونة بالطباشير, يستلقي بجانب طفلة الحبو بملابسها الواسعة. قطة, عفاف, بأظافر طويلة, وشعر منكوش, وعيون تبحلق في المكان بحبور, ووجه يجيد الالتفاف بسرعة.

في صباح كهذا, عالياً مثل نبض قلبه, يتجاهل وخز ضميره بالسهو, يحاول أن يضع رأسه على ظهرها, ينثر أغنية حزينة بجانبها, لكنها أعطته ظهرها, ومضت, يتذكر رائحة جسدها التي مضت هي أيضاً, كأنها رائحة استيقاظ, أو رائحة بول قديم, ويعود للسؤال, عن الفرق بين الروح والجسد.

- يا الله.. غير ملابسك, واغسل وجهك.

يود أن يمرض من أجل أن يظل هكذا, مثل شيء معلق بين السماء والأرض, فيبكي.. لماذا يبكي ?.. لا يعرف!

خوف يولد شكوكاً من كل شيء..

لِمَ الخوف.. ?

عندما أنام أختنق بريقي فأصحو هلعاً بنفس يكاد ينقطع, أشرب كأس ماء ثم أنام.

حصل على وظيفة كانت حلماً, ثم صارت إلى واقع رتيب. منذ تلك اللحظة التي بدأ فيها العمل, مروراً بلحظات أخرى, رأى فيها مديره في العمل, ينظر في ساعته وقت الاجتماعات, بينما المسؤول الأعلى منه, انشغل بالمكالمات الهاتفية, وكأنهم جميعاً,

في حالة قلق, ورغبة في الهرب من هذه الارتباطات, بدأ يشعر أن العمل الذي كان حلماً, يتهاوى أمامه الآن, يرى نفسه, مثل شيء محبط, سقط ذلك الشيء الثمين الذي كان يحمله, تكسر إلى شظايا صغيرة.

مزق صفحة من حياته, كتبها ذات يوم في مسرح الجامعة, وخبأها في جيب أفضل ثيابه, كانت عن عمل يحقق به ذاته, فتحولت الورقة إلى شيء آخر, لا علاقة له بأحلامه القديمة.

قال له مديره في العمل, وهو قريبه أيضاً:

- واظب على وظيفتك من أجل الترقية, وحتى تتقاعد براتب جيد.

صدمته النصيحة..

لكن والده أكد له:

- هذه نصيحة من إنسان مجرب..

هنا بدأ الخوف..

بدأت الشكوك في كل شيء, أحياناً مجرد وخزة ضمير, لكنها تهز كيانه بالكامل.

ترك الوظيفة, ذهب إلى أخرى, وعرف فيما بعد أن مديره السابق صار رجلاً ثرياً, وفتح مدرسة خاصة, ثم صار مستشاراً في مكتب رجل مهم..

أخيراً استقر به الوضع في شركة, شركة جديدة مليئة بالمهندسين والعمال الهنود, لكن العمل بها مرتبك وغير واضح, وفوجئ ذات ظهيرة أن مدير الشركة أحضر غداءً للمهندسين والعمال, صحوناً كبيرة من الرز والدجاج, وضعوها على مفارش وسط صالة المبنى, أكلوا جميعاً وهم يتحدثون عن كل شيء, ويعصرون الليمون على كل شيء, ثم يشربون الكولا, وبعد الانتهاء انفرد مدير الشركة بالمهندس المسئول, وأوصاه خيراً بالشركة, لأنه يريد السفر خارج الوطن (للاستجمام), سأله المهندس عن رواتب العمال, قال بعجل: إذا عدت يا أخي, ثم ذهب إلى سيارته, فلحق به أحد العمال وهو يركض صائحاً: مدير.. مدير.. يا صديق, سأله المدير: ماذا تريد يا عظيم الزمان, قال عظيم: راتب يا شيخ, قال المدير بحدةٍ: اذهب للمهندس, ثم أطلق عجلات سيارته للريح.

واصل العمل في هذه الشركة الجديدة التي بلا مدير, عدة أشهر, لكنه لم يجد هذه الشركة, حين ذهب لها ذات صباح كئيب, كانت خاوية على عروشها, سأل حارس المبنى المجاور, قال له: لا أعرف, ومن الصحف عرف أن المهندس المسئول نهب كل شيء وهرب, وأن المدير (المستجم) حين عرف بالقصة أصيب بجلطة, في مكان (استجمامه), فصارت رحلة علاج أيضاً, أما عظيم الزمان فقد عمل سائقاً, في البيت المقابل لمبنى الشركة سابقاً.
عاد إلى الوظيفة الحكومية مرة أخرى, بعد أن تجاوز الكثير من أحلامه, يحضر صباحاً للعمل, يوقع الحضور, يقرأ الصحف, يتحدث مع زملائه, يضحكون, ثم يفكر كيف يخرج من العمل باكراً لكي ينام, أو يقرأ, أو يتابع المسلسلة اليومية.

لازالت الأيام تتشابه..

عندما مثل أول نصّ مسرحي على مسرح الجامعة, صفّق له الأساتذة والزملاء, لكن بعد التخرج, لم يجد خشبة مسرح, وجد مسرحاً عبثياً في تفاصيل حياته اليومية, ولهذا وجد من الأفضل, أن يكون أحد أعضاء هذا العبث, وليس مجرد شاهد.

هجر الكتابة بعد تلك الخاطرة الخيالية, بدأت حياته تدريجياً تدخل مناطق أخرى جديدة عليه, إذ تعرف على أصدقاء جدد, وحياة جديدة, وشيئاً فشيئاً بدأ يعيث في حياته فساداً, سفر وسهر على طول الطريق, حتى نزل بهدوء إلى العالم السفلي لهذه المدينة المتحجبة, وتعّرف على عالم الخيال الحقيقي, المليء بوجوه النساء وأنواع الخمور المحلية والمستوردة, أما تلك الأحلام العظيمة, فقد أغلق عليها في غرفة مؤجلة, داخل رأسه.
غرفة واسعة تستقبلهم مساء كل يوم حتى نهاية الليل, في إحدى شقق شارع الخزان, غرفة شهدت ركاماً هائلاً من الحكايات التي لا تنسى.

قال وهو يريد النوم بعد يوم مليء بالآثام: أشعر أنني شيء مؤجل.. ثم نام.
نام ليوم كامل أخاف أهله, يختنق بريقه, يصحو هلعاً, يشرب كأس ماء ثم يعود للنوم, تملؤه رائحة الغرفة العالقة منذ زمن بالوسادة, بينما ترتفع من رأسه أصوات خافتة تئن متوازية مع أزيز غامض يدور في رأسه فيؤلمه حتى البكاء. أو الموت, مع فقدان خفيف للذاكرة...
كان يسأل نفسه وهو يزور هذه الأماكن الجديدة, والمظلمة, والواطئة, ما الذي أتى بي إلى هنا, وفي مساء الغد, ينسى أسئلته, ويذهب لها من جديد, تدوخه السجائر الغامقة اللون التي تخدر رأسه, فيضحك ملء روحه, ويسمع من الجالسين أخبار السياسة, ونتائج مباريات كرة القدم التي يعشقها, دون أن يشاهدها, كما كان يحرص طالباً.

ظهر كل خميس, كان يذهب مع أهله إلى الأقارب, يتناولون الغداء, ويعودون في المساء. أحياناً كثيرة لا يذهب معهم, يظل نائماً حتى العصر, يوقظه والده بعد عودته: انهض يا عدو الله, ليبدأ الموعد مع عراك طويل, ينتهي بهربه الموّقت من البيت.
بعد انتقالهم إلى الفيلا الجديدة, انقطعت عادات الغداء بين الأقارب كل خميس, وظلت علاقته بوالده مثل درجة حرارة مدينة الرياض, غير مستقرة على الإطلاق, أحياناً تكون في ذروة مجدها, بسبب تنازل من الطرفين, وأحياناً تسقط إلى أسفل سافلين, بينما أخذت والدته المسالمة موقفاً محايداً من كل ما يحدث, لكن علاقته بأخته عفاف ظلت علاقة حب صافية وحميمة ورفيعة من الطرفين, فهو خادمها المطيع, رغم أنه أكبر منها, لهذا ظلت تراه أفضل الشباب مهما فعل, ويراها أفضل البنات.

الأيام متشابهة بلا جديد, والحقيقة تظل هاربة دائماً.

خوف مدمر من كل شيء..

خوف يتناسل عدم ثقة في كل شيء..

وجهه يحمّر حين يقابلهم. بتعليقاتهم الفضولية..
عيونهم صارمة..
يضحكون.. بلا عفوية, ضحك مقصود, للإساءة.
وهو يأكل في روحه, وحين ينام يختنق بريقه.
أو ينام مملوءاً بالهواجس والوساوس والأصوات المتداخلة, التي تملأ رأسه الضاج, فتحيل نومه إلى شيء مقلق يكرهه:
هل هذا هو المستقبل الحلم الذي كنت أنتظره..? ثم يغيّر وضع رأسه على الوسادة الساخنة: أريد أن أظل هكذا لكي أنزل إلى متكئها الحالم, وأكتب عن أحلامنا معاً, وجنوننا معاً, وموتنا معاً موتاً جماعياً.

يفكر الآن في جسده, وفي روحه التي كادت أن تخرج من جسده ذات ليلة, قبل أن يشرب كأس الماء:
أين كانت روحي قبل جسدي?.. هناك في السماء.
هل يمنع كأس الماء روحي من الخروج..
ثم دخل في هلوسة, ما يشعره وما يعيشه, بين واقعه وما يتوهم دائماً أنه واقعه, في أحلام اليقظة, وفي أحلام النوم القلقة. ودائماً مشكلة الروح والجسد, علامة هذا الضجر, الذي يحاول أن يقرأه في عيون الناس, فيرتاح قليلاً.

صمت الأشياء

في الصباح أكل جبنة مثلثة مع قطعة خبز , وشرب كأس الشاي واقفاً, ثم خرج, كان يفكر في أشياء كثيرة, وخلفه تتساقط أشياء كثيرة, يفكر في أسئلة الطبيب في الزيارة الأولى, وماذا سوف يسأله بعد قليل. في الطريق كان أقل انتباهاً وأقل تركيزاً, لا يرى سوى هذا الثعبان الأسود الممتد أمامه, حتى وصل مقر العمل, وقع الحضور متأخراً, ثم انطلق نحو العيادة, لكن حديث صديقه الأسبوع الماضي لا يزال يرنّ في أذنه.
قال له: هذا الطبيب النفسي سيئ السمعة..
- كيف ?
- تحرش ببعض مريضاته وحصلت مشاكل..
- يمكن هذا الطبيب بحاجة إلى طبيب.

يتذكر أسئلة الطبيب السابق.
لماذا تشرب, هل تمارس العادة السرية, هل تحب الله, هل تحب والديك, هل تحب الناس, هل تحب الحياة, ما علاقتك بالنساء, هل تحب وطنك, كم ساعة تنام في اليوم, هل تدخن, هل تداوم على الصلاة?!

سأل الطبيب: وما دخل الصلاة.

قال الطبيب: أنت أجب فقط, أقل لك من أنت (يضحك).

في غرفة الانتظار صحف كثيرة قديمة, تناول واحدة, قرأ عناوين متكررة دائماً عن أمريكا وإسرائيل والقمة العربية, وعن مظاهرات القاهرة ضد إسرائيل وأمريكا, رمى بالجريدة, ودخل على الطبيب بعد أن سمع اسمه, وهو يفكر إننا في هذا الوطن

نعيش في صندوق مغلق بعيداً عن العالم, كأنه يرى هذا الصندوق يعوم في بحر كبير تتلاطمه الأمواج, بلا بوصلة تهديه.

كان الطبيب يسأله بسرعة, كأنه يحفظ هذا الكلام بالحرف الواحد, وفي أغلب الأحيان هو نفسه من يجيب على أسئلته, وحين ينطق هو بكلمة, يتدخل الطبيب, يلتقط هذه الكلمة, يعلق عليها بثرثرة طويلة.
قال للطبيب: أختنق بريقي وأنا نائم.. وأحيانا أفقد الذاكرة.
قال الطبيب... وكأنه جهاز تسجيل:
– في الذاكرة شوارع مثل شوارع المدن التي مررت بها في حياتك, هذه الشوارع لها شبيه في رأسك, وهي في النهاية شوارع الذاكرة, لكنها أحياناً تشبه الشوارع المسدودة.
ثم بحماس:
– حاول استعادة الذاكرة حين تأتيك الحالة, حاول أن تعد من الواحد إلى العشرة, سوف تعود الذاكرة سريعاً, وهذا يعني أن حالتك طبيعية, لكن لا تستسلم ولا تضعف, حاول أن تسجل كل شيء مرّ في حياتك على شكل نقاط مثلاً, لتنشيط الذاكرة.
ثم.. استدعى المريض الآخر..

خرج من العيادة محبطاً, وقد عقد العزم على عدم العودة للأطباء ثانية.

كانت المسافة بين العيادة والبيت غريبة وجديدة, كأن الرياض تحولت إلى شيء آخر, شيء يشبه المنزل الخرساني الصلد الذي سكنوه حديثاً, يسمونه (فيلا), شيء كأنه يريد أن يلمس روحه الشرسة, ويقول له: أنا لست أنا, وأنت لست أنت. مساحات عميقة من الصمت في هذه المدينة, بينما العالم يغلي في الخارج, صمت ضاج يمنحك فرصة الإنصات إلى قلبها, هواجسها. أيام متشابهة في هذه المدينة التي لا تعرف هل هي متدينة أم منحلة, مدينة كاتمة صوت, مثل (قدر) مكتومة على وشك الانفجار.

يشعر بغربة عميقة ورغبة في البكاء, بينما الرياض تدور معه, من شارع العليا, إلى شارع مكة, إلى شارع الخزان, مروراً بأحياء الطفولة, حتى حي الشميسي, ثم حي البديعة الجديد الذي احتضن قبل أشهر أحلامهم الجديدة, في بيت واسع وموحش, مشوار كأنه عمر من العيادة للبيت, الآن.. سيارة بجانبه قبل المنعطف الأخير لحارتهم, ترفع صوت موسيقى يعرفها, وامرأة بكامل لبسها الأسود بجانب رجل يدخن ويضحك كأنه يرقص, وهي تومىء برأسها فقط, وربما كانت تضحك, وإلى اليمين محل للتسجيلات الإسلامية, التي انتشرت في كل الشوارع, ثم صف من المطاعم والخياطين والبقالات التي لا تنتهي, ثم السوق المركزي الذي بُني حديثاً وصار مكاناً لالتقاء العشاق, وأخيراً هاهو المنعطف الأخير, ثم تتوقف سيارته أمام باب بيتهم مباشرة, نزل فوجد والده يجلس على عتبة باب (الفيلا).

سأله مباشرة: أين كنت?

قال له: في العمل.

قال: أريدك في مشوار.

سأل: الآن.. ?!

قال: بعد العصر.

دخل البيت الذي حلمت به العائلة ثلاثين عاماً, وهاهو يتحقق أمامهم الآن, لكن بلا روح. يدخل الحمام, يضع رأسه تحت حنفية الماء, ربما تُخفّف وطأة هذا القيظ العظيم, كان يسأل نفسه عن هذا الملل الذي غرقت فيه العائلة جميعها, منذ وطأت أقدامهم, هذا الحي الجديد, وهذا البيت الخرساني الثقيل, قبل عدة أشهر, منذ تركوا بيت الطين الذي مازالت رائحته عالقة في جسده.

كان يظن أن حياتهم سوف تنطلق إلى فضاءات جديدة, لكن لا سبب واضح لهذا الإحساس الحاد بالملل والغربة والفراغ, هل يعود لتشتت الأهل والأقرباء في عدة أحياء متباعدة, بعد أن كان الجميع في أحياء صغيرة متجاورة, أو يعود لتشتتهم داخل

هذا البيت الواسع الموحش, وانفراد كل واحد بغرفته وحياته الخاصة, لا يعرف, أغلق حنفية الماء, وضع فوطة على رأسه, وهو يسمع صدى موسيقى خفيفة, تأتي من إحدى الغرف, ربما غرفة أخته, خرج من الحمام, دخل غرفته, قال لن أنزل للغداء, ولن أخلع ملابسي, اتجه رأساً إلى السرير, رمى جسده, وفتح جهاز التسجيل, كما لم يكن معتاداً, وآثر هذا اليوم أن ينام على ظهره, ويا الله, أية راحة تكشف عنها هذه الطريقة في النوم, كان يحدق في سقف الغرفة كأنه يراه لأول مرة, وعندما نظر إلى أرضية الغرفة شمله دوار عظيم, حتى أن سلطان النوم, دهمه فجأة, على غير عادة, فهل كان بحاجة إلى مثل هذا التغيير كي ينام بسرعة. أفاق أول العصر, بعد ساعة من نوم قلق, رأى فيها, أن هذا البيت الجديد مليء بالمياه حتى الأسقف, وهم يعومون داخله, كما لو أنهم أسماك حزينة.

نزل الدرج في أربع وثبات سريعة, حتى دخل في ظلمة الدور الأرضي, ثم خرج إلى الشارع مروراً بأمه النائمة في الصالة, بينما يصدح من (الراديو) الصغير بجانبها صوت المقرئ, وهو يرتل سورة يوسف من إذاعة القرآن, ومروراً بالحديقة الصغيرة المؤدية للشارع. وجد والده ينتظره بعد أن أدى صلاة العصر, ركب معه في سيارته.

سأل الابن: إلى أين؟

قال الأب: إلى بيتنا القديم.

انطلق إلى هناك وهو يفكر, هل يشعر والدي بالغربة أيضاً في هذه الحارة الجديدة, وفي هذا البيت الواسع الذي طال انتظارنا له, شعر بكآبة عابرة وهو يفكر بحالهم, التي تشبه شمعة على وشك الانطفاء, شمعة تقاتل هذه الريح التي تهب عليها من كل الجهات لكي تبقى, كان يحس أن الزمن, مثل نهر قوي يريد أن يجرفهم جميعاً, إلى أماكن لا يعرفونها, ووجوه لا يعرفونها, وفكر: إنه زمن الطفرة الاقتصادية, زمن الأغنياء والأقوياء وأبناء الذوات, وليس زمن الفقراء والمرضى والحالمين, زمن الانتقال نحو عالم غامض لا يعرفون عنه شيئاً. يشعر فيه كأنه كائن ضائع

ومعطل. كان والده صامتاً في السيارة, وكان يشعر أن قسوته الدائمة تمنعه الآن من تقبيل يده اليسرى, التي وضعها بجانبه, وقد اتكأ على صندوق القماش الذي بينهما.
لماذا لا أخبره بتعبي, هل سوف يهتم, ربما أنه يخفي وراء قسوته طفلاً لا يبوح بأسراره.

وصلا الحارة القديمة, كان الهدوء, وعتمة خفيفة ورطوبة, تلف شوارعها الضيقة في هذه العصرية الحزينة, بينما لا زالت جدرانها تحفظ كتاباتهم القديمة, وترابها يحفظ وقع أقدامهم القديمة, أوقف السيارة في الشارع أمام الباب مباشرة, نزل والده, ونزل وراءه, فتح الباب ودخلا, توقف الأب وسط ساحة البيت, بعد أن هرب عصفوران من الفتحة الواسعة في السقف, ثم أخذ يتلفت حوله كأنه يبحث عن شيء, وسط أكوام التراب.

سأله ابنه: ماذا ستفعل ?
قال الأب: من هنا... نحفر هنا... أسفل هذه الجدران الطينية.. ثم نضع أحجاراً قوية تحمي البيت.
مشى وسط البيت الصغير بتثاقل, وكان صامتاً, ثم طلب من ابنه أن يُحضر أدوات الحفر من الغرفة الصغيرة, أحضرها له, فبدأ الأب يضرب أسفل الجدار الطيني المتهالك وسط الدار, والابن يحمل التراب خارج الحفرة.

حفر كثيراً حتى التعب, توقف, أخذ في يده حفنة من التراب الطيني, شمّها..
سأله: ماذا ?
قال الأب: هذه الرطوبة تأتي من (البيارة).
قال الابن: هل نشفط (البيارة).
لم يرد عليه, وواصل الحفر...
– هل أحفر عنك..
– أنت لا تعرف الطريقة, يجب ألاّ يختل توازن البيت.

استمر الأب يحفر حتى تعب, جلس على المرتفع الترابي.
قال: سأستريح قليلاً.
قال الابن: يكفي هذا اليوم ونحضر عاملاً في الغد.
قال: لا,.. ثم استلقى على ظهره.

لاحظ الابن, بعد قليل, أن والده نام على التراب, في لحظة كان أذان المغرب على وشك الارتفاع, والوقت يدخل في ظلام, بينما كان الابن يشعر بالآلام في أطراف جسمه, وجسده يرتعش كأنه ضوء يهتز, ووخزة خفيفة في رأسه تأتي وتروح, أسند ظهره على الجدار, وهو يحس أن يداً ملوثة بالدم, تتحرك داخل صدره, كأنها تريد أن تقبض على قلبه, عرق بارد ينضح من جسده, جلس على الأرض, ولاحت له رغبة في إشعال سيجارة, لم يفعل احتراماً أو خوفاً من هذا الشيخ النائم أمامه. والده الآن يرقد بسلام ومتعة, بينما هو في منطقة وسطى ما بين بيت طيني فقد الاهتمام به, وبيت جديد لم يكنّ له مودة بعد.
يتأمل نوم والده, يتذكر, تلك الحيرة أو المطب الذي وقع فيه والده, قبل الانتقال إلى الحارة الجديدة بأشهر, حيرة من نوع عميق لم يستطع أن يخرج منها بسهولة, حين تقدم لأخته عفاف شابان, الأول ملتحٍ قصير الثوب ومتوسط التعليم, ويتحدث بطريقة جماعة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, والآخر جامعي لكنه يدخن, الاثنان من عائلتين طيبتين كما يقال لكن,... هو ووالدته وقفا مع الشاب الثاني, ومعهم أخته صاحبة الشأن, أما والده وشقيقه الذي يصغره فقد كانا مع الأول, وهكذا أسابيع طويلة من المشاورات والمشادات والخلافات, حتى وصل الأمر بوالده, إلى رفض الاثنين.
ظل يفكر بصورة أخرى تجاه هذه المسألة..
يرى أن هذا المجتمع, الذي ينتقل الآن من مرحلة إلى أخرى, من أحياء بيوت الطين إلى أحياء بيوت الخرسانة الجديدة, قد انقسم إلى فريقين, فريق تزمت دينياً, وفريق اندفع نحو الحياة الاستهلاكية الجديدة بكل قوة, وبينهما فريق ثالث ضائع وتائه لا يعرف ماذا يجري حوله, وكُلّ يحاول جرّه إلى منطقته, بكل الطرق المشروعة وغير

المشروعة, على طريقة الاغتصاب الإنساني, ورأى أن أخته عفاف من تلك الفئة الثالثة المسكينة, وسط هذه الأمواج المتناقضة والمتلاطمة, تعوم كأنها سمكة حزينة. هكذا نقلوا حياتهم وأفكارهم وأحلامهم وعاداتهم ومخاوفهم, إلى البيوت الجديدة, حتى في مدخل البيت وضعوا مجلساً للرجال ومجلساً للنساء, وبابان خارجي وداخلي للرجال, ومثلهما داخلي وخارجي للنساء, داخل بيوت عالية الأسوار ?!.

سمع عن أورام عجيبة ظهرت, جرائم بشعة يرتكبها مراهقون, وأحياناً يرتكبها رجال الشرطة أنفسهم, انحلال أخلاقي, تزمت ديني مرضي, فساد, فوضى, سطو, دعارة, مخدرات, سرقات, والأراضي قفزت أسعارها فلا يكون بمقدور شاب أن يفكر بشراء قطعة أرض لبناء سكن خاص, قصص ولا في الخيال دارت رحاها الغامضة, شباب يضربون رجل دين حتى الموت, رجال دين يقفزون أسوار البيوت العائلية من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, شباب يتزوجون من تايلاند ولا يعودون إلى الوطن, شباب يموتون في أفغانستان باسم الجهاد, ومعسكرات صيفية لتعليم المراهقين الغلو الديني وكره الحياة وكره الناس, أصبح المجتمع فريقين, فريق يرفع شعار إن الله شديد العقاب, وفريق يرفع شعار إن الله غفور رحيم, وكل شيء ينتهي طبعاً بـ ... صدق الله العظيم, وخلف كل هذا طبول إعلامية تقول, كل شيء على ما يرام.

أفاق والده, وقف بجسده الطويل والنحيل, نفض الغبار عن ثيابه.

سأل ابنه عن الوقت.

قال: المغرب.

قال الأب: البيت يحتاج إلى عمل كبير, سوف نحضر العمال الأسبوع القادم.

قال الابن: إن شاء الله.

خرجا من البيت, أغلق الباب, وقبل أن يركبا السيارة, إذا بالشيخ إبراهيم العقاري يلقي التحية, إنه إمام المسجد, وصاحب مكتب العقار في الحارة, وكان قد سارع إلى شراء البيوت الطينية من أصحابها, الفارين إلى العالم الجديد في الأحياء الجديدة, ثم

يؤجرها على الأسر الفقيرة, يشتريها بثمن بخس ويحصل على ما دفعه من إيجار عشر سنوات, ثم تصير من أملاكه.
رحب بهما, ثم سأل عن أحوال البيت, وهل في نيتهم بيعه.
قال الأب: نريد إصلاحه وتأجيره.
قال العقاري: أعطني المفاتيح وسوف أصلحه من قيمة الإيجار.
وافق الأب على الفور, وأوصاه خيراً بالبيت.
قال الشيخ إبراهيم: لا تخف.. بيتك في أيدٍ أمينة.
الشيخ إبراهيم هو عمدة الحي, إمام المسجد, وفراش المسجد, وصاحب المكتب العقاري, متزوج من امرأتين, وله أولاد وبنات تزوجوا جميعاً.

ذهبوا إلى مكتبه المجاور لبيتهم, فتح المكتب ودخلوا, أدى الأب صلاة المغرب, ثم دخل مع الشيخ إبراهيم في تفاصيل عقد الإيجار, والابن جلس على الكرسي المجاور للباب يتأمل الحركة الصامتة في شارعهم الصغير, ويفكر في ذلك التاريخ الذي لم يبق منه, سوى ذكريات أشبه ما تكون بالغيمات الراحلة, يفكر في إضاءة زوايا كثيرة مظلمة في ذلك الزمان, وتلك الأمكنة, لكن في هذا الوقت الضائع من الوقت الضائع دائماً, لا شيء يكشف شيئاً, كل الأشياء المحيطة غامضة, مساحات عميقة من الصمت تلف كل شيء, فقد الشارع رجاله وأطفاله, ونساءه بعباءاتهن السود وضحكاتهن الصاخبة.
في هذا الشارع كبروا, وتعلموا المشي والكلام, والخوف, والأحلام والصمت أيضاً, وفي الشارع الواسع خلفه, سوق صغير لنساء ورجال يبيعون كل شيء, حتى الحكايات والأساطير الشعبية, مع أنواع اللبان, والأشياء المسحوقة للمرضى والنفساء.

كانت بداية العلاقة مع هذه الحياة, ومع شوارع هذه الحارة, صارمة ومخيفة.

ذات خوف حين كان شارعهم يودع آخر أنفاس شمس الغروب, كانوا يلهون في الحارة حفاة الأقدام, ويطلّون على سكان البيوت الطينية المواربة أبوابها الخشبية, لم

يكونوا بعيدين عن تلك الحفرة الوشم التي لم يروا حياتهم منذ ولدوا بدونها, وفجأة سمعوا صرخة صغيرة, في الوقت الذي لمح فيه طفلاً يهوي في الحفرة التي تشبه البئر القديمة, كانت لحظة غارقة في ذهول طفولي أسود, وكان الطفل في تلك اللحظة المرعبة, يطلق صرخة مدوّية من صدره الصغير, وربما كان معها يطلق النفس الأخير, كان كل شيء مرعباً بعمق معنى الكلمة, وكان في المكان جمع كبير, كانوا قادمين من سوق المدينة, باتجاه مساكنهم, توقف الناس وأخذوا يحدقون في الهوة المظلمة التي ابتلعت الطفل, وهو من البعد يرقب المشهد بهلع, كان كمن ربطوا قدمه بسلك كهربائي, يرتعش والعرق يتصبب من جسده, وبدا مثل من لا يصدق ما رأى, كائن بشري يسقط في ظلمة أبدية تبتلعه بكامله!! ومع مرور الأيام حاول نسيان ما حدث, لكن بلا فائدة, ذهب بعيداً في مذاكرة الدروس واللعب, ولكن أشياء كثيرة دائماً ما ترسم تلك الصورة في ذهنه, مع إحساس غامض كان يدهمه أحياناً بأن من سقط في تلك الحفرة هو, وليس أحداً سواه, وكان في أوقات أخرى يتصرف على هذا الأساس, كما لو أنه ذلك الطفل الذي هوى, حتى رأى ذات حلم أن الحفرة تتسع وتتسع, لتلتهم في طريقها نحو المزيد من الاتساع, المزيد من الناس, حتى أصبحت أكثر اتساعاً, لتلتهم حارتهم بأكملها, لكن حين أفاق بنصف يقظة أو يقظة غير صريحة, اكتشف أنه كبر, وأنهم انتقلوا إلى حارة جديدة, وصار لهم جيران جدد يقتنون سيارات جميلة وملونة, ويلبسون ثياباً ناصعة البياض, يعطرون ملابسهم ويخرجون من منازلهم, ثم ينطلقون في شوارع المدينة. ثم كبر مرة أخرى, ليعرف أنهم جميعاً يسيرون عكس اتجاه السير.

داهمته الرغبة في النوم, وهو جالس على الكرسي, بينما يستمع دون اهتمام للحوار بين والده والشيخ العقاري وجيران آخرين, يتكلمون بسرعة وبهجة, كأنما كل واحد منهم وجد ضالته في الآخر, فهذا والده الصارم يضحك مع الشيخ إبراهيم, لأول مرة يراه يضحك بهذا العمق, يشرب القهوة المُرّة ويأكل التمر رغم مرضه بالسكر, ويضحك.

- يا الله.. كم أرى وجهه جميلاً وهو يضحك, لماذا يخبئ هذا الوجه الجميل عنّا, هذا الأب الذي كان يقابل طفولتي عند باب بيتنا الخشبي بصلف دائم, حين كنت أريد الدخول, يرفع صوته وهو ينظر باحتقار إلى هيئتي.. أين كنت يا... يهودي.

الآن في نومه اليقظ, في مكتب الشيخ إبراهيم, يشعر أن آباء كثيرين يلاحقونه بوجوه متشابهة, ولحى كثة, يلاحقونه, كل واحد يريد أن يكون أباً له, آباء بعدد شوارع الرياض, يطاردونه في هذه اللحظة, يريدون أن يكون مُلكاً لهم, كما لو أنه قطعة أرض, آباء كثيرون, وهو الحالم المريض, يريد, بعد أن تجاوز مراهقته, أن يهرب منهم جميعاً وينطلق بمنظار آخر بلا يقين, وبلا حسم, حتى أسئلته الطفولية, عن الموت وعن الله وعن الجنس وعن النساء وعن الروح والجسد,, كان يريد أن يخرجها من تلك الغرفة المظلمة في رأسه, لكنها ذابت في تلك الغرفة ولم يعد لها وجود, سطت عليها أسئلة الحلال والحرام والعمل والسياسة وأمريكا وإسرائيل, قتلتها وحلت محلها.

يعود ليتأمل الحوار الدائر بين هؤلاء الجيران..

والده, والشيخ إبراهيم وسط بهجة الحكي, ينطقون حرف الكاف, بالسين الثقيلة من طرف اللسان, مثل كل أهل نجد, لكنه لا يعرف نطق هذا الحرف بالذات, مثلاً: كيف الحال, يعني: سيف الحال, وهكذا, لكنهم يتكلمون بسرعة ويضحكون, ولازال هو على وشك النوم, يفتح عينيه حين ترتفع أصواتهم, يقع نظره على الشيخ إبراهيم, يُبادلـه النظر, يبتسم, ثم يعود إلى نومه. كان يظن أن عائلتهم وحدها هي المتعبة والحالمة والمبعثرة والمغتربة, حتى بدأ يرى آثاراً سوداء على وجوه الناس الذين يلتقيهم كل صباح في طريقه للعمل, والآن يرى هذه الآثار في وجه الشيخ إبراهيم, الذي يشكو إهمال أولاده له, وانقطاع بناته المتزوجات. أحياناً يتحدث هذا العمدة بصوت مرتفع, يشتم أولاده وبناته ويشتم الدنيا, لكن والده يرد عليه: لا تشتم أرجوك.

لازال يفكر في هذه النقلة الجديدة في حياتهم, ماذا فعلت بهم, ماذا فعلت بكل الناس, الشيخ إبراهيم بنى عمارة وثلاثة بيوت لأولاده, والده بنى لهم فيلا كبيرة بعد أن باع كل شيء, وهذا حصل مع كل الناس الذين يشتمون الآن كل شيء, ولا يعرفون ماذا جرى, لكي يبدوا عصبيين ومتأزمين دائماً..

ودعهم الشيخ إبراهيم العقاري, بعد حوار حافل, خرجا من المكتب, وركبا السيارة.

كان والده صامتاً طوال الطريق إلى المنزل, لكن قبل أن يصلا بقليل, سأله دون أن يلتفت:

- لماذا استأجرت شقة.
- قال له: قريبة من عملي..... لم يكمل !!

رفع الأب يده بأن يتوقف ابنه عن الحديث, لكن الأب ظل ساهماً حتى وصلا, نزل من السيارة, والابن ذهب إلى شقته.

كائن مؤجل

خرج الأصدقاء بعد منتصف الليل, ما عدا وليد الذي بقي في الصالة يقرأ الصحف, دخل خالد غرفة النوم, أسدل الستارة وفتح المكيف, استلقى على ظهره, وهو يشعر بآلام في كل أنحاء جسده المُخدر, وغثيان في المعدة بفعل كأسين فقط.
قال إني لن أموت, لا يموت الإنسان قبل يومه, أو قدره, الموت تسبقه رائحة, تملأ حياة الإنسان, ولهذا يشعر البعض بدنو أجلهم قبل الرحيل بأيام, الآن لا أشعر أن الموت قريب مني, حتى وأنا أتنفس بصعوبة, ورأسي تعصف به آلام السهر والقلق, فأرى النوم بعيداً مع هذا التعب, ربما بعد يومين أو ثلاثة أعود لحالتي الطبيعية, لكن هذه الدائرة التي تحيط بي, أشعر أحياناً أنها محكمة الإغلاق, تعود من دائرة السهر إلى حياتك الطبيعية, تأكل وتشرب وتنام, تداوم العمل, وتزور الأهل والأقارب مثل عباد الله الصالحين, في روتين يومي, لا تلبث أن تمله, وتعود لدائرة السهر والأصدقاء والقلق من جديد.
شيء ما يشده إلى هذا العالم, هل الرغبة في الهرب من هذا الواقع, أم أنه أكثر ضعفاً في مواجهة واقع لم يفهمه بعد..
في كل مرة يقابله والده يسأله: لماذا عيونك حمراء, أو منذ متى لم تنم يا شاطر؟!

أشعر أنني شيء مؤجل, أو كائن مدجّن.

ولكن, الآن, أنا حر, في هذا المكان الصغير الذي يضم أحلامي المؤجلة.

لازال يحدق في أظافر يديه كل لحظة, لكي لا ينسى ذاكرة مجروحة, وأحلاماً مكسورة, وصفعات قديمة, فيفيق وينتبه, على وجه كظيم وقنوط, وأظافر صغيرة لطفل كبير, يبعثر الأسئلة واللعنات, ثم يتذكر بكاء أمه وسطوة أبيه, أبوه الذي في الشوارع, والطفل الذي بداخله, لازال يراه جيداً, يركض في الشوارع والحارات, يكتب على

الجدران أسماء الأصدقاء, يبني بيوتاً من تراب, يركض في كل حارات المدينة, يسهر الليالي الطويلة, يدخن ويشرب مضمخاً برائحة الوقت اللذيذ والرقص والنساء.

قد يكون المستقبل هو ما يعيشه الآن, ما كان ينتظره وما سوف ينتظره, يقف أمامه الآن مثل رجل, مثل عمود النار, وحتى الآن هو بلا أسرة ولا بيت خاص, ها هو المستقبل, كأنه يريد أن يلمسه بيده, يدور مثل هواء حول رقدته المؤلمة, لا يشعر بالغربة في بيت والده فقط, لكن أيضاً, في هذه المدينة, يشعر أنه أقل من كل الناس بلا سبب.

أحياناً يشعر أن ما يعيشه ليس سوى حلم طويل, ينبغي أن لا يشغل ذهنه بتفاصيله, لأنه مجرد حلم لا أساس له من الواقع, حتى تدهمه لحظة واخزة في الضمير يشعر فيها بحدة التحقق من وجوده, على أرض واقع صلب شديد الخشونة, فتعود حالات القلق وفقدان الذاكرة, يفكر في والدته وأخيه وأخته, وأحياناً يشعر بخطأ الخروج من بيتهم, مع عدم الرغبة في العودة لتلك الحارة.

في آخر لقاء مع أخته عفاف في بيت والده, قالت له إن شقيقي أحمد لم يعد يشاهد التلفزيون, وإنه يغلقه حين يرانا نشاهده أنا وأمي, كما أنه مزق رسوماتي التي علقتها في الصالة وأخفى جهاز التسجيل, وصار يغيب عن البيت في أوقات كثيرة.

يا الله.. كيف يأتيني النوم وأنا أفكر بهذا السيل من الأشياء التي تدعو للاختناق. بماذا عليّ أن أفكر لكي أنام.

من الصالة التي يجلس فيها وليد, يأتيه صوت مذيع نشرة الأخبار من التلفزيون, وهو شبه مخدر, يتذكر أياماً قديمة مع وليد, يتذكر سطح بيتهم الجديد, السهر والشرب والأصدقاء, كانوا ينامون في السطح حتى توقظهم الشمس, وكان والده يبني بيتهم الجديد جوار بيت والد وليد, حين قرر أن يهرب من كل هذا, إلى هذه الشقة المنزوية, بعيداً عن ذلك العالم المتربص, المليء بالعيون المتلصصة التي ما تكاد

تراك, حتى تبدأ في بث مواعظها. أحدهم استوقفه ذات مساء وهو يمشي من بيت والده الجديد إلى بيت وليد.

قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

-: وعليكم السلام, ضحك الشيخ ثم حاول أن يضع يده على كتفه, ابتعد قليلاً.

قال: أهلاً يا شيخ.. خير إن شاء الله.

قال الشيخ: نحن وأنتم الساكنون الجدد في حارتنا المباركة هذه, نريد أن نعقد اجتماعاً يومياً في المسجد.

سأله: لماذا؟

قال: نتدارس أمور الدين والدنيا.

قال له: نترك أعمالنا وحياتنا لنتدارس أمور الدين والدنيا.

ضحك الشيخ الصغير وقال: ألا تبحث عن شيء يسجل في ميزان حسناتك.

قال: العمل عبادة والنوم عبادة أيضاً.

قال: ليس في كل الأحوال يا بني.

وفجأة ظهر شاب صغير لم يتجاوز العشرين على نفس هيئة الشيخ, لحية وثوب قصير, ومعه كيس من أشرطة الكاسيت, فأيقن أنهم بدأوا يرسمون عليه, فتركهما مردداً: سلام عليكم, وكانا في حال ذهول.

قال في نفسه وهو يضحك بسخرية: كان لابد أن أتركه, لأنه يريد أن أستمع إليه, ثم أمشي خلفه, ثم أحضر محاضراته, ثم أوزع أشرطته, ثم أخيراً يقطع لي تذكرة ذهاب فقط إلى أفغانستان, بينما يظل هو هنا هانئاً في بيته ومع زوجاته.

ربما, أشياء كثيرة على ما يرام, الآن.

بدأت الآلام تهدأ, وبدأ يشعر بوجوده.

يتبقى فقدان الذاكرة, ودواء الطبيب الذي لم ينفع حتى الآن, وكذلك ما لاحظه في الفترة الأخيرة, فقد بدأ يحدّث نفسه في بعض الأحيان, وحين ينتبه لهذا الفعل الغريب يصمت, وأحياناً, حين يسمع حديثاً بين اثنين في العمل أو في الشارع, يشعر أنه قد

سمع هذا الحوار من قبل رغم استحالة ذلك, ثم في لحظة يدرك عدم صحة حدسه, لأن ما أمامه ليس سوى وجوه لا يعرفها.

ترك السرير, خرج إلى الصالة, جلس على الكنبة, أشعل سيجارة, تأمل دخانها, الذي حجب قليلاً ملامح وليد, الجالس على قطعة الزل أمام التلفزيون, ثم سأله عن أخبار مشروع زواجه.

قال وليد: مات المشروع نهائياً.

كيف؟! سأله.

ذهبت إلى بيتهم مساء أمس, كنت في حال بهجة وملابس عريس, لكن والدها فاجأني بأسئلة غريبة.

سألني عن العلاقة بين والدتي وخالي..

قلت له: ما بها ؟

قال: يقولون إن والدتك لا تكلم خالك الذي هو شقيقها..

قلت: ربما خلاف بسيط..

قال: كيف خلاف بسيط, ثم هل خالك متزوج فعلاً من (....)؟!

قلت: صحيح..

ضحك ثم سألني: وعمك لماذا سجنوه العام الماضي.

قلت له بحدة: هل هذه محاكمة ؟

قال لي وهو يضحك أيضاً: لا.. لكن لا أريد لابنتي أن تعيش في مثل هذه الأجواء, خصوصاً أنها تريد إكمال دراستها العليا.

وهنا عرفت أن سبب رفضه هو غروره بمنصبه الجديد, فاعتذرت له وخرجت, بعد أن هالني ما رأيته من تحف في بيته, وهو الذي كان فقيراً معدماً..

واصل وليد بحماس:

كل جدران بيته دواليب زجاج مليئة بالكتب والتحف, هل تتصور ذلك, كيف يقرأون وهم ينفقون أوقاتهم في الأسواق والفنادق والسهرات, مع حفظ بعض العبارات الثقافية

لزوم الحضور الصوتي في المجالس, هذا البيت شاهد على حياة استهلاكية, ضربت أعماقنا.

أطفأ خالد سيجارته..
قال: انس موضوعه, ثم سأله عن أخبار الصحف..
قال وليد: هل تذكر المثل الذي يقول: ذهبنا لاسترداد إبلنا المسروقة فأخذ الغزاة أغنامنا, وهذه حال العرب الذين حاولوا استرداد فلسطين فذهبت العراق, ولهذا كان الإرهاب الغبي رد الفعل القوي على الإرهاب الأمريكي والإسرائيلي وإهمال الحكومات العربية لشعوبها طوال نصف قرن.

تحدّث خالد بصوت ثقيل: قبل يومين, زرت بيت الأهل, أمضيت وقتاً خانقاً, أختي قالت لي, إن شقيقها أحمد دخل غرفتها وأخذ جهاز التسجيل لأنه حرام كما يقول, ذهبت لغرفته وسألته: لماذا يا أحمد؟! قال لي بصوت صارخ: حرام يا أخي, قلت له: الجهاز في غرفتها وأنت اقتحمت أشياءها الخاصة, قال: نحن في قارب واحد إذا غرق فسنغرق جميعاً.
تخيل, هذه الشاعرية الدينية.. قارب وغرق وحرام.
قلت لها: سوف أمنعه عن كل ما يقوم به, ويعيد لك الجهاز.
المهم أنني صورت ورقة من جريدة عربية, كان فيها موضوع لباحث عربي في الشؤون الإسلامية بعنوان: (السنة النبوية العملية أباحت الغناء والفنون المصاحبة له), وداخل الموضوع عشرات الأحاديث الصحيحة, جميعها أحلت الغناء, وقد وضعت الورقة أسفل باب غرفة شقيقي أحمد, ثم جاءني رده, بأنه لا يعترف بمثل هذه الأحاديث. وهذا من حقه طبعاً, لكن ليس من حقه أن يفرض على الآخرين ما يراه صحيحاً, بينما هم يرونه غير صحيح.
قال وليد: لا تعطي الموضوع أكبر من حجمه, إنها موضة سائدة في البلد هذه الأيام, كما أن أحمد في سن المراهقة, وربما يغيّر سلوكه.

وأكمل في حال اندهاش: هل تلاحظ, فسد كل شيء, فسدت علاقات الناس, وفسدت أماكن العمل وفسدت العلاقات الأسرية, وغرقنا وسط تناقضات دينية وسياسية واقتصادية عارمة, ماتت الحارة الحقيقية, ومات المجتمع الحقيقي, ومات الإنسان الحقيقي, ولم يعد باستطاعتنا أن نعيد أنفسنا من جديد للخروج من هذا الخراب العظيم.

صمت وليد لحظة ثم واصل: لست متشائماً يا صديقي ولكن كل ما أمامي يدعو لذلك, لأن الصورة من البعد سوداء, وأمراض المجتمع وتزمّته الآن, كان خلفها أياد سوداء كان لها مصلحة في إمراضه, أليس الدين نفسه يدعو للوسط ويرفض الغلو.

لاحظ وليد أن صديقه أغمض عينيه, ولهذا طلب منه أن ينام, قال خالد وهو شبه مُخدر: حين تأتيني الحالة الملعونة ترتفع حرارتي, وأشعر بدوار, أغيب لحظات, كأن الزمن يتوقف عند هذه اللحظة, التي تشبه الإغماء, وحين تعود الذاكرة, تعود قوية وأكثر عمقاً من ذي قبل, إلى درجة أشعر أن تفاصيل طفولتي مرسومة في الفضاء الذي بيني وبينك. أفكر في طفولتي, من صاغني بهذا الشكل, أسئلة عن الوجود, تجعل جسدي على وشك أن ينفصل عن روحي, عندما أغرق في حلم قوي وصريح يجعلني أبدو مثل تائه, ينام نومة غير مريحة, أشعر بطيران الروح, يغادر العقل, فتتهاوى كل الأشياء أمامي, في صمت سينمائي مؤثر.

سأله وليد عن دواء الطبيب وهو يضحك, قال: تركته بعد أن نصحني بتنشيط الذاكرة بالعد من واحد إلى عشرة أو بالكتابة, قال وليد: وماذا كتبت ؟

لا أريد أن أكتب في حالة يأس, فأنا في هذه اللحظة أرى حياة تغرق في الفوضى واليأس والحزن, أوقات مليئة بكل شيء إلاّ أسئلة المواجهة الصريحة, كلُ يخبئ أسئلته, يكتمها, ثم تعبر عن نفسها بانفعالات مرضية. لكنني قرأتُ عن رائحة لمسها الناس قبل أن تخرج من القدر المكتومة, قبل أن تخرج الأرض عن صمتها, ونحن نبني حلماً آخر, وطناً آخر في منتصف المسافة بين المدينة والبر, نحلم أن مركباً سوف يجيء من آخر الدنيا, نرى بعينين غامضتين, نصفنا نوم, ونصفنا الآخر يقظة, فهل تخرج الكتابة الحرة الجديدة واضحة الآن, هل تخرج إلى جنونها قبل أن تغرق السفينة, قبل أن يشتعل الحصى في الجبال القريبة, والورد في الآنية.

كانت خيوط الصباح تطل عليهم من نافذة الصالة.. نهض وليد من جلسة طويلة على الأرض, لبس (غترته) وغادر, وهو ترك الصالة, ذهب يدور في الشقة يبحث عن نوم مفقود, وعن وجه جميل مفقود, فرفع الصوت عالياً: محتاج لك, والله, يا أميرة.

يقظة غير صريحة

أغلق جهاز التلفزيون, وهو يشعر بشيء جديد يسري مع الدم في عروقه.

في الطريق إلى الغرفة كان أكثر حزناً مما يظن.

وقف يتأمل وجهه في المرآة, وسط الصالة, كان يشعر, بعبث, أن شيئاً تائهاً عن دربه, سوف يخترق الجدار خلفه, ثم يستقر في ظهره.

ارتعد جسده ثم مال قليلاً, على إثر هذا الشعور المباغت, رأى أنه أخفى ضحكاً مكتوماً على ما يحدث في الخارج, لكنه ظل, مستمتعاً بفكرة, ذلك الشيء الضائع الذي سوف يطعن ظهره.

كان لوجهه ملامح جديدة, لم يرها منذ زمن طويل, بدا كما لو أنه, بهذه النظرات الجديدة, أكبر سناً, أو أكثر قلقاً, أو ربما, كلاهما, مع خوف جديد يشي بروح جديدة, لكن لازال وخز الضمير, والخوف, والشك, والاختناق بالريق.

قال: لا أرغب الآن في النوم, بعد كأسين قلقتين, وحوار متكرر وممل.

وضع إبريق الماء على النار, مكث جواره يتأمل بخاره المتصاعد, أو يتأمل النافذة الصغيرة, التي تصله من فتحات شبكها أصوات مختلطة للجيران, رجال ونساء وأطفال, يحدّثون بعضهم أو يحدثون أقرباءهم بالهاتف مع أصوات موسيقى خفيفة.

خرج إلى الصالة مصحوباً بالدوار والخوف الممتع المثير, وكأس من (الشاي), ومن النافذة الواسعة تأتي رائحة الهواء كأنها رطبة أو ممزوجة برائحة الرصاص أو البارود أو الزيت أو الفحم.

للمرة الأولى منذ وقت طويل لا يعرفه, ربما منذ الطفولة, يعتريه شعور خفيف وغامض ومبهج ومثير للخوف, للمرة الأولى منذ وقت طويل لم يشعر بشيء من هذا, بشيء من الإثارة التي تعمّق المشاعر وتجعله يحس بوجوده على نحو مرعب, حيث يتوقع أن يحدث شيء, حين تنفجر تلك القدر التي تغلي منذ زمن, ربما تتكشف الحقيقية.

مرت سنوات طويلة, كانت المشاعر فيها مسطحة, والرؤية للأشياء محايدة, والأحداث المتباعدة التي تحيط به غير مهمة وغير مثيرة.

كان لكأس الشاي طعم مختلف, ورائحة جديدة, قال: إن كل شيء أصبح مختلفاً, حتى سلوك الكثير من البشر الذين أصبحوا الآن أكثر انفعالاً وأكثر أنانية, فهل يفعل الخوف كل هذا.

في الطريق إلى النوم عبر شوارع كثيرة, قابل وجوهاً كثيرة, وحادث أناساً كثيرين, كانوا يجلسون على عتبات أبواب بيوتهم وهم يبحلقون في السماء.

في الطريق إلى النوم كان أكثر قلقاً وحزناً وخوفاً مما يظن.

النوم لا يأتي, لكن تعب الجسم كأنه وخزات إبر, يشعر هذه اللحظة أنه يعيش في حالة جديدة, غارقة في ذهول عجيب, ليست بين نوم ويقظة, لكن ربما بين واقع خفيف وحلم أشد وطأة من الواقع, يشعر أنه الواقع الحقيقي, والذاكرة يعود بها إلى الوراء, تدور على الصور, ثم تقترب من الحاضر بسرعة, في محاولة لجمع شتات الصور المتناثرة, يفكر في والده ووالدته وأخته التائهة وأخيه أحمد الذي يكاد يضيع من بين أيديهم, يفكر في أشياء كثيرة تحدث ولا يعرف معناها, فإلى سنوات مضت, كان يطمح إلى شيء جديد يغير حياتهم وأفكارهم لينطلقوا بشيء جديد, بعد سنوات من الحياة في صندوق مغلق, لكن كل شيء ينهار دفعة واحدة, والحياة تسير بهدوء وملل يشبه الموت.

أغمض عينيه في لحظة نادرة المتعة, لكنه في ذروة المجد, سمع صوت جرس الباب..

فتح الباب لكن لم يجد أحداً, تأمل المدخل الهادئ والمظلم قليلاً, ثم دخل, أغلق الباب, وهو يشعر أنه يدخل بصحبة أحد ما, رجل من الأزمنة القديمة, يحمل تاريخاً يجب التعرف عليه, قال له: يجب أن أعترف بشيء يا صديقي, فأنا لست مشغولاً

كما أوهمتك سنوات طويلة, أنا أمكث في بيتي لا أغادره منذ عدة سنوات, لا أخرج إلا قليلاً, ومثل هذه العزلة علمتني كيف يمكن أن يكون الهدوء رجلاً نبيلاً أو امرأة فاضلة أو لوحة تشكيلية شفافة وعذبة وغالية وحبيبة, علّمتني كيف أضع جداراً عالياً بيني وبين الأصوات الأكثر ضجيجاً والأكثر إيذاء والأكثر بؤساً, ازدحم بأشياء كثيرة, بشوارع وحارات ووجوه وأسئلة وحوارات وبيوت وأسواق, ازدحم بنساء ورجال وأطفال, ازدحم بأشياء تنتظرني حين أخرج, ثم أعود إليها لاهثاً, فأجدها موضوعة على الطاولة بعناية تنتظرني, وهنا فقط أتذكر أين وضعت رأسي قبل أن أخرج, فأهيئ لكل هذه الأشياء, وقتاً ساخناً, وفناناً ومتوجساً وشاعراً ومنتشياً, ينام بقربي.

عاد إلى الغرفة, وصدى جرس الباب يرنّ في أذنه, شعر بإرهاق مفاجئ, توقف, اتكأ على جدار قريب, مشى قليلاً, حتى وصل إلى غرفة النوم, رمى جسده على السرير, مكث عدة دقائق يتابع نبض قلبه المتسارع, حتى بدأ يشعر بوجوده شيئاً فشيئاً, لكن الذاكرة كانت ضعيفة. في لحظة وامضة شعر بغربة في هذه الغرفة, أخذته بعد ذلك إغفاءة صغيرة, ثم للحظة بعد الإفاقة, لم يعرف مكان وجوده في البيت...

هل أنا في الصالة ?!. تساءل.

الظلام لا يعطيك فرصة للحركة أو الرؤية.

لقد كنت في الغرفة, قبل أن تنطفئ الإضاءة هكذا فجأة, هل انطفأت فعلاً, أو قبل أن أشعر بالظلام الكبير حولي, نعم في الغرفة, ولكن أشعر أن المكان صغير, قد يكون غرفة الجلوس المجاورة للصالة.

يمد يده, يتبعها بجسده وسط الظلام, فيتعثر في هذا الفضاء الموحش, ينهض, يرفع يده, يقترب من الجدار, يسند ظهره, ثم يتأمل المشهد المظلم.

ألم في عينه يصل إلى رأسه, أين النظارة:

كل ما أعرفه أنني كنت مسترخياً على السرير, حين أفقت مذعوراً على أصوات مجلجلة, أصوات رجال ونساء وأطفال كأنهم في حفلة ما, كانت نومة مضطربة وكنت ما بين يقظة غير صريحة ونوم غامض, أسترجع صوراً وأحاول تركيز ذهني لكي أعرف هل كانت صوراً حقيقية واقعية أم مجرد أحلام, صور قريبة جداً لا تلبث أن تبتعد في لحظة من لحظات هوان الذهن.

إذن.. ربما كان الباب مفتوحاً ودخلوا.
أظن أنني رأيتهم يدخلون, لكنهم كانوا مشغولين, كانوا يتحدثون مع بعضهم بأصوات مرتفعة, كنت أراهم مثل أشباح تدخل وتخرج, يدخلون الغرف والحمامات والمطبخ, ويخرجون منها بأصوات وحوارات مرتفعة.
تمتد عيناي إلى أبعد نقطة في الصالة, التي بدأت أتيقن من وجودي فيها, أستطيع أن أرى بصعوبة ستارة النافذة التي تطل على الممر, لونها السماوي اللامع, الشيء الوحيد الذي يسطع في هذا الظلام, مع بعض ضوء شحيح يأتي من الباب الموارب.
هل ركضت قبل قليل ناحية هذا الضوء, ألم العينين لازال, والنظارة ما زالت مفقودة.
أذكر أنني وصلت البيت بعد مشوار طويل, بدّلت ملابسي, ثم رميت بجسدي المرهق على هذه السرير, أين وليد, كنت مسترخياً بعينين مفتوحتين فقط, وجسد متعب وذهن مشتت وحالة غريبة هي ما بين اليقظة والنوم, حتى أحسست فجأة بالظلام الدامس والصور الغريبة والوجوه الكثيرة والأشياء التي أحاول استرجاعها, ثم هذه الأصوات, وأصحابها الذين يتجولون حولي بكل صخب, ألم يصل أحياناً إلى الرأس فلا تميز بين الحقيقة والخيال, قلت لا علاقة لهذه الحالة بالنظارة, لكن أين هي?! الحقيقة واضحة أمامي الآن.. لقد دخلوا البيت في غفلة مني, دخلوا في وقتي, الذي ربما أخذتني فيه إغفاءة قصيرة, هل دخل الليل?!
سوف أتأكد من وجودي حين أقطع هذا الفضاء المظلم أمامي, حين أدخل المطبخ, حين أرفع كأس الماء البارد المليء, وأسكبه دفعة واحدة في جوفي, لأرتوي من هذا الظمأ القديم, سوف أقطع هذه الصالة رغماً عن أجسادهم التي تروح وتجيء, وأصواتهم التي أرهقت فضائي الهادئ, وبعد أن أرتوي أعود إلى الكنبة الطويلة لكي أتم فصول المسرحية, في هذه الصالة الجديدة, لأكتب عن ذلك النوم الغامض غير الصريح, وتلك اليقظة الغامضة أيضاً, وغير الصريحة.
لكن هكذا فجأة, وجدت أنني أنزل إلى تلك المنطقة الغامضة, ربما قد أستطيع بعدها, أن أرتاح قليلاً, أو أسلم روحي لموت يشبه الموت السريري, الذي يجعلك تقضي حياتك ساهماً فقط.

هبطت إلى هناك, على استحياء, أغلقت إضاءة البيت, ثم نزلت إلى أرضها آمناً ومستسلماً, إلى أرض الحبيبة المفقودة, نزلت أبحث عنها, وأبحث عن الرؤيا, غافراً لقلبي خطاياه الصغيرة, وآمراً روحي بأن تتوحد مع كل شيء في هذه المكان, ربما أصيد الرؤيا, هارباً من وقتي, هارباً من حروب صغيرة وصراعات هنا وهناك طال شرارها وقتي المنكسر, هارباً من عبث, ومن ركض دائم بلا معنى.

نزلت متطامناً.

ولما استويت على أرض جديدة, رأيت دروباً ضيقة ومعتمة.

رأيت وجهها النوراني فأجلستني على متكأ حالم.

تحركت نفسي, فبدأ قلبي يتحرك أو يبتهج أو يرقص.

بدأت أحس الطفل الذي كنته, حين عادت بي الروح الجديدة إلى أماكن جديدة.

قالت لي سوف تنهض روح جديدة في داخلك, وسوف تنهمر شعراً وغناءً ورقصاً, لكي تنفض غبار السنين العالق في روحك القديمة.

أغمضت عيني في هذه الأرض الجديدة, ورأيتني في صورة أخرى أراها من البعد, ترقص وتغني, حتى حلّ المساء, وجُنّ الليل, وسكنت الحياة.

قالت عُد لأهلك يا ابن الحياة فأنت, الآن رجلاً جديداً.

صعدت إلى هنا من جديد, وإذا بي أرى الطفل الذي كنته, والرجل الذي ما زلته يلتقيان في طريق ضيق ومعتم, وخلفهما وجه نوراني يغويني, كأنه لأميرة, قلت: كل النساء جميلات.

تذكرت أنني احتفلت به في وقت قريب, وجه يشتعل ضوءاً مثل وردة.

قلت لم يمت الطفل في داخلي..

لم تمت الأمكنة القديمة.. والجديدة.

لم تمت الذكرى..

وهذا صباح جديد يفيق على رأسي..

والشمس مضيئة مثل وجه فتاة مرحة..

وثمة ألحان جديدة..

تسكن روحي..

ثمة حقيقة غامضة, أكثر سطوعاً من ذي قبل, على وشك أن تعبّر عن ذاتها.
وفي الخارج... أرى حنيناً, يريد أن يصحبني إلى هناك, إلى أرضي الجديدة, ذلك الحنين الذي كان يعتريني, منذ زمن طويل, ولم أكن أعرف, كيف أقرأ سطوره.

أفاق من نومة مثيرة وقلقة, على بهجة صغيرة, بأنه أفضل الآن, بعد راحة قصيرة, لكن قدراً من الحزن الأصيل, بدأ يلف وقته, حزن أسطوري, يذكره بوجوه قديمة, لأسواق قديمة يعرفها, مليئة بالآباء, والباعة, والنساء بالعباءات السوداء والتعاويذ والرقيات, والأجواء الأسطورية لحارات, تفوح منها رائحة, تضمخ جدران البيوت بألوان مستحيلة, وبهجة قلقة, وحزن قديم, كأنه قدره الدائم, مع حالة انتشاء خفيفة, جعلت أعصابه مستثارة, فتذكر رغباته الجنسية الجامحة, التي يتجاهلها كثيراً, وبدأ حياة أخرى, بحثاً عن حقيقة غامضة وهاربة, ربما يجدها في اللحظات المثيرة بين الروح والجسد.

حياة أخرى

الآن.. حياة أخرى..

في البدء.. مجرد رغبة لتنشيط الذاكرة الخاملة.

كان يتفرج على الورقة البيضاء بالصمت الجليل..

أجمل صورة.. أمامه الآن:

ورقة.. وصمت..

ورقة بيضاء صامتة, يعد فيها من الواحد إلى العشرة, دون رغبة حقيقية في الكتابة, وأمامه لوحة ورقية بيضاء.

كان يفكر في تلك الأوراق المحفوظة, منذ زمن, في الغرف المظلمة, من روحه, أو رأسه, أو جنونه.

أوراق صامتة, معبأة بالتواريخ والصور والأحلام والأفراح والآلام و.. الذكريات.

بياض يبحث عن سر المعنى.

كتابة عن (حياة) صغيرة نبتت وسط الرياض القديمة بعد طفرة اقتصادية خجولة, مطلع الخمسينات الميلادية, ثم انطفأت هذه الحياة الأولى, وبدأت أخرى كبيرة مطلع السبعينات الميلادية, نقلت الناس من هذه الحارات الطينية, إلى الحارات الحلم المبنية بيوتها من الخرسانة والحديد, بأسوار عالية, ونوافذ محكمة الإغلاق, فهل كان الحلم, الذي تحقق, على مستوى عذوبته, حين كان مجرد حلم فقط?!

منذ ولد وحتى مرحلة مراهقته تحديداً, التي تعني مرحلة الانطفاء لحارتهم, كانت فترة الاشتعال الجنسي بالنسبة له, والاشتعال السياسي في المنطقة العربية أيضاً, بعد زيارة السادات لإسرائيل, بالإضافة إلى حالات الرفض والتمرد على أشياء كثيرة, وإذن كان هناك الكثير من القصص التي تستحق أن يُنشّط بها ذاكرته.

ولهذا سوف يتجاوز تلك القضايا الضخمة, التي علقوها على مشجب التاريخ, لأنها لم تكن تهمهم أصلاً, سوف يتجاوز عبد الناصر, وحروب العرب مع إسرائيل, وقطع الملك فيصل للبترول عن أمريكا عام 73م, واحتلال جهيمان للحرم, واتفاق السلام بين السادات وإسرائيل والحرب الأهلية في لبنان, واجتياحه من قبل إسرائيل, واحتلال العراق للكويت, ومن ثم احتلال وسائل الاتصالات الحديثة للعالم, واحتلال أمريكا

للشرق الأوسط, فمن أنت حتى تهتم بمثل هذه الأمور الكبرى, هذه الأمور المضحكة الآن .

في هذا البياض الصامت, سوف يحاول خلق روح أخرى موازية لروح استعرت, في داخله المريض سنوات طويلة.

روح تحاول استبطان المعنى..

كتابة مفتوحة... عن تلك الأماكن التي مرّ بها, ولا زالت رائحتها, كأنه يريد أن يلمسها, ولا زال طعم سكرها في لسانه.

الآن.. حياة أخرى..

إذ في مطلع القرن الماضي, خرج أربعة فلاحيـن من إحدى قرى الرياض, خرجوا من حال الجوع, يبحثون عن حياة جديدة, كان معهم قربة ماء وكيس من التمر الناشف, تعينهم على قطع أكثر من مئة كيلومتر وسط الصحراء مشياً على الأقدام.

في القرية التي خرجوا منها, قال الناس إنهم ذهبوا للكويت للعمل في البحر, وقال آخرون إنهم ذهبوا ليعملوا في مزارع الرياض الوفيرة الماء, لكن أغلب رجال القرية الذين أنهكهم الجوع مع عوائلهم, لم يفكروا بالرحيل وترك مزارعهم الخاوية وأراضيهم الجافة, كانوا يصلّون لربهم كل مساء, من أجل أن يمّن عليهم بالمطر, حتى نسوا أمر هؤلاء الرجال, الذين غادروا دون رجعة, كانوا يدفنون موتاهم الذين قضوا بسبب الجوع, ثم يلجأون إلى المسجد, للدعاء من جديد.

في الأيام الثلاثة الأولى, لمسيرة الرجال الأربعة كانوا أكثر حماساً وأكثر قدرة على قطع المسافات الطويلة, بسبب عمل سنوات طويلة أكسبهم القوة والصبر, ساروا

ساعات طويلة, كانوا أقوياء, وكان الحلم بالحياة الجديدة في مدينة الرياض يهز مشاعرهم, وهم يحثون الخطى ليل نهار.

في اليوم الرابع, مساءً, استراحوا تحت شجرة كبيرة, شربوا وأكلوا من التمر الناشف ثم ناموا حتى الفجر, صلّوا, ثم واصلوا المسيرة, حتى نفد التمر اليابس ولم يبق سوى قليل من الماء, ظلّوا يمشون حتى شعروا أنهم قطعوا أكثر من نصف المسافة, يرتاحون قليلاً ثم يواصلون المسير, دون أن يأبهوا لأصوات غامضة تحيط بمشيهم, قادمة من آخر ظلام الصحراء, يمشون طويلاً بأحلام كبيرة, وأحزان كبيرة على فراق الأهل والأحبة, وحين حلّ بهم التعب العظيم, ارتاحوا, بعد أن ارتسمت على وجوههم علامات التعب والبؤس والقلق, فقد نفد التمر ونفد الماء ولا يوجد قرى مجاورة, يمكن أن تروي عطشهم القديم, حتى الكلام فقد قدرته على التعبير, وصارت نظراتهم لبعض, أو لهذا الليل البهيم في الصحراء, هي لغة أخرى قاسية وخائفة, نظرات مليئة بالخوف, وكأن الخوف يكاد يتحول إلى شيء أو رائحة, تدور حول أرواحهم التي فقدت معنوياتها, وحول أجسادهم المنهكة.

وفي لحظة غامضة, نظر الرجل الرابع لهم نظرة غريبة, كان مستلقياً غير بعيد عنهم, لكنه شمّ رائحة ما مخيفة, فنهض واقفاً, وركض بكل ما تبقى ل¯ه من قوة, ركض مسافات طويلة حتى غاب عن أصحابه الثلاثة في ظلام صحراء نجد العريقة, لقد شعر هذا الرجل, بأن أصحابه الثلاثة, وهم أصلاً أبناء عم, يفكرون في أكله, وفي اللحظة التي دهمه فيها هذا الشعور, فقط بادلهم نظرات وجلة وغامضة ومريبة, ثم أطلق ساقية للريح, بينما كانوا في حيرة من أمرهم, كيف عرف هذا الرجل, بما كان يدور فعلاً في أذهانهم, بشكل غير جاد.

وصل الرجل, بعد أن شارف على الموت إلى قرية صغيرة, كانت بالنسبة ل¯ه حياة جديدة, بعد أن رأى الموت بعينيه, وهو يركض هذه المسافات, جائعاً وظمآن, استقبله أحد رجال القرية, حين سقط هامداً جوار حائط مسجدها الوحيد, قدم ل¯ه الماء والأكل, وطلب منه أن ينتظر حتى صباح الغد, لأن هناك راحلة سوف تذهب إلى الرياض, التي صارت على مسافة غير بعيدة.

في الصباح انطلقت الراحلة فعلاً, وصلت الرياض بعد يومين, فأحس الرجل أنه ولد من جديد, فنام عدة أيام متتالية في (منفوحة), الشاعر الأعشى, جنوب الرياض, بعد ذلك عمل في مزرعة مقابل أكله وشربه ونومه, وحراستها أيضاً, فبدأ يفكر في أهله الذين تركهم في قريته, أما رفاقه الثلاثة, فقد مسحهم من ذاكرته.

هذا الرجل هو جدّه, فقد تزوج, فيما بعد واحدة من نساء الرياض, أنجبت له والده وعمه وعمته, وعمل والده أيضاً مع جدّه في نفس المزرعة عدة سنوات, حتى استطاعوا الانتقال من الرياض القديمة إلى وسط الرياض الجديدة في ذلك الوقت, إذ بنوا بيتاً من الطين, بعد استقرار الكثير من العوائل, عندما فتحت بعض الدوائر الحكومية والمدارس أبوابها, إبان حكم الملك سعود مطلع الخمسينات الميلادية, ومن بعده الملك فيصل, وهنا تزوج والده من امرأة قريبة لهم, نزح أهلها من الوشم إلى الرياض, فحمل والده راية العائلة بعد وفاة جدّه, عمل ساعياً في إحدى الدوائر الحكومية, فبدأت العائلة تنتعش قليلاً, بعد سنوات من الكدّ والتعب والتنقل من بيت إلى بيت في حارات الرياض القديمة, لكن علاقتهم لم تنقطع بالأهل في القرية, إذ كانوا يزورونهم في الأعياد, من خلال سيارات النقل, التي تذهب للحجاز أصلاً.

في مطلع السبعينات الميلادية, بدأ ينتبه للحياة حوله, إذ بلغ العاشرة تقريباً, وبدأ يسمع عن أشياء حدثت, ثم انتباهه لهذا الحضن الذي يحتويه في حارتهم المتوعكة قليلاً, بسبب انخفاضها عن الحارات المجاورة.
حارة تبدو مثل كائن خرج تواً من كومة تراب, كان في أحيان كثيرة, يفكر من أين جاءت, من اختار لها هذا المكان, متى ولدت هذه الحارة, لماذا جعلها الله منخفضة

هكذا, من هي (أم سليم) التي سُميت الحارة المرتفعة المجاورة لهم باسمها, يقولون إنها وطأت هذا المكان منذ سنوات طويلة, امرأة كبيرة في السن, مات زوجها وترك لها الكثير من جنيهات الفلاحة ومحصول الزراعة, فاشترت الكثير من الأراضي الرخيصة ثم باعتها قطعاً صغيرة. هذا المكان الذي تقع فيه حارتهم يشبه حفرة كبيرة, تقع مباشرة جنوب شارع الخزان المعروف, وشرق حارة أم سليم المرتفعة, التي تستطيع من سطح أقصر بيت من بيوتها, أن ترى الحفرة الواسعة التي يسمونها الشميسي بأحيائها الصغيرة المتجاورة وبيوتها الطينية الواطئة, وفي موسم الأمطار, يتحول الشارع المؤدي من أم سليم إلى الشميسي, إلى نهر يصب في حارتهم المنخفضة, فتبدو حارتهم بعد توقف الأمطار, كأنها بركة واسعة. حارة منخفضة, بل ربما هي أكثر حارات العالم انخفاضاً, وكانوا يتألمون وهم يرون سكان الحارات المرتفعة يستمتعون بسقوط الأمطار, بينما هم يكونون قي قمة الذعر, وسط تكبير وتهليل سكان الحارة من كبار السن, الذين يقولون إن تواصل الأمطار بسبب غضب الله, وكان يتساءل عن أسباب هذه الغضبات المتواصلة, وعن الذنب الذي اقترفوه.

في منتصف هذا الحي يقع بيت العائلة, وكان الناس قد أكملوا بناء بيوت الطين بطريقة شبه منظمة, لكن الشوارع لا تتجاوز عرض خمسة أمتار, وهناك شوارع بعرض أقل, وغير نافذة, إذ تعترض الطريق بيوت أخرى.
سكان هذا الحي, هم الذين عمروا بيوتهم الطينية, بمساعدة الأقارب وبعض العمال بالأجرة, وفي أغلب الأحوال لا تتجاوز مساحة البيت الطيني خمسين متراً من دور واحد, بمساحة واسعة في وسطه, تحيط بها غرف النوم والمطبخ, وفي المدخل مجلس رجال وحمام صغير.
هؤلاء الرجال الذين عمروا بيوتهم بسواعدهم القوية, لم يكونوا يعرفون أنهم عمروا أيضاً شوارع الطفولة لأحفادهم, لتكون محطتهم المهمة, في هذه الحياة النجدية البسيطة والفقيرة والحالمة, هنا في هذه الحارة, الشوارع أهم من البيوت, عرفوا ذلك فيما بعد, فقد علمتهم كيف يهربون من بيوتهم, لتفتح أذرعها لأحلامهم الصغيرة المتمردة, وغرائزهم المكبوتة, كانت الشوارع طويلة وضيقة, وحولها البيوت الطينية

المتلاصقة, بارتفاع واحد تقريباً وكانت الأبواب الخشبية في الغالب مواربة, لتتحد أصوات الجيران مع أصواتهم في أجواء عائلية بهيجة.

بيوت أهل والدته وأشقائها وشقيقاتها, يحيطون بهم من كل جانب, ولهذا كانت جدّته لأمه لا تفارق بيتهم, كانت تتمتع بقوة شخصية, يخافها والده ووالدته أيضاً, وفي أعياد الفطر أو الأضحى, تملأ جيبوها بالحلوى لتوزعها على أحفادها, مثلما توزع البيض ناتج أعشاش دجاجها, على بيوتهم أيضاً, وكانت تقف بصرامة أمام كل ولد أو بنت من أحفادها يدّعي المرض لكي لا يذهب إلى المدرسة. يذكر أنه كان يقرأ لها بعض ما تعلمه في المدرسة, وهي تضحك مجاملة بغير اهتمام, مثلاً: (الولد النظيف منظره ظريف), ولم يكن يعرف معنى ظريف, أو: (بلاد العرب أوطاني من الشام لتطوان) وكان يفصل (العر) عن (بأوطاني) في نطق الجملة كاملة, وحين بدأ خاله يحضر المجلات العربية, بدأ يقص صور العواصم العربية ويحفظها في دفتر خاص.

في سطح بيتهم, المرشوش بالماء, يجتمعون بعد صلاة المغرب, ويأتي أخواله وزوجاتهم وأولادهم, فيتذكرون أحوالهم صغاراً في قرى الرياض, وأحياناً يغازل خاله الشيخ زوجته أمامهم, فيخجلون. في تلك الأيام, حين يعودون من المدرسة الابتدائية جائعين, يهجمون على مخبأ الخبز يأكلونه مع التمر, ثم يشربون ماء الزير, وينامون حتى العصر, ليبدأ مشوار الركض في الحارات حتى آذان المغرب, وفي صباحات الجمعة, يبدأ الناس مشوار تنظيف دورهم حتى الظهر, وهم يركضون في الحارة الترابية الضيقة, وكانت تبين الأبواب الخشبية الموارية, المدهونة بكل الألوان, ينبعث من فتحاتها أضواء المصابيح الواهنة, وكان الرجال يخرجون ممتلئين برائحة المستنقعات والرطوبة, يخرجون إلى المساجد في احتفاليات واضحة, وبخور, تكتسي على أثره الجدران بالألوان الفاتحة, يخرجون بعد أن يستحموا بالماء والصابون والعطر, يخرجون ليروا أنفسهم أو ليرَ بعضهم بعضاً, وكانوا يستطيعون أن يشمّوا روائح الصابون تنبعث من أجساد الموظفين, ومن أفواههم, الموظفون وحدهم يقتنون

الثيـاب والعطـور, والنسـاء يمـلأن المطـابخ صـخباً, والأطفـال فـي عـريهم المعتـاد, والشباب يروحون ويجيئون بثياب بيضاء, والفتيات على أبواب الدور بأجهزة تسجيل صـغيرة, يسـتمعن لأغنيـات طـلال مـداح ومحمـد عبـده وأم كلثـوم, كمـا تـرى رجـالاً يجلسون أمام الأبواب في جماعات, يشربون الشاي ويدخنون, وخلفهم نساء يلغطن, في وقت معبأ بالذهول الجميل, وروائح الرطوبة وصباح الجمعة, كأن هذه الطرق الضيقة معتمة, أو كأن الحارة نصف مغمضة تسير في غير اتجاه, مثل سفينة ثملة, بينما يراها, أحياناً, تقف هناك خلف الباب, بعيدة عن العيون, يراها من البعد شاهقة مثل نخلة تطل من علو, يليق بسموها على حارة تشبه طفلة ضائعة.
كان الناس في الحارة متآلفين إلى أقصى درجات الحب, والغيرة, والحسد أيضاً, فكل بيت يريد أن يسبق لاقتناء جديد السوق, الذي بدأ يهلّ على حياتهم من اليابان والصين وأوروبا, بدأوا يتعرفون على التلفزيون والغسالة الكهربائية والثلاجة, سنوات طويلة مضت كان الناس يقضون أمسياتها, جوار أبواب بيوتهم, يتناقلون الحكايات والأساطير والقصص وأحداث الحارة السارة والمحزنة, رجال ونساء وأطفال, يتبادلون الأحاديث والنكات والتسالي وكاسات الشاي الصغيرة, وبجوارهم يقع (دكان) الحي الذي يبيع قوالب الثلج والتونة والصلصة, ومقابل الدكان يقع بيت أم محمود الفلسطينية التي تخيط للنساء ثيابهن, ومكتب الشيخ إبراهيم العقاري الذي يجتمع فيه رجال الحارة وشيوخها.
في ليلة يذكرها, حين أذن الفجر, وهم نائمون على سطح البيت, سمع صوتاً أنثوياً يهمس برفق: قم, كأنه صدى صغير لصوت المؤذن, يتردد في أذنه فيتذكر أزمنة الصباحات القديمة, حتى إذا ما انتهيا, الصوت والصدى, شعر بيد باردة تربّت على رأسه: يجب أن يراك الناس في المسجد لكي يعرفوا أنك كبرت..

وفي الشارع الرطب, القارس البرودة, بدأ يشم روائح كريهة كأنها بول قطط أو كلاب, روائح قوية ونفاذة, بالإمكان لمسها بأصابع اليد, وضع كفيه في جيب ثوبه, انحرف إلى شارع صغير ذي إضاءة صغيرة, يقود إلى الشارع العام, وهو يتأمل حركة الأطفال مطبوعة على أتربة الشارع بأقدامهم الصغيرة, التي ركضت كثيراً ليلة

البارحة, وهي ترشق مصابيح الضوء الباهتة بالحجارة, كان يمشي ويفتش في مشاعره العارية مثل طفل ولد تواً, مشاعره الدخانية في أكثر الأحيان, محاولاً إعادة كل شيء لم يفهمه إلى أبعاده الأليفة, التي تمنحه القدرة على أن يعيش سعادة متوهمة, لكن رائحة بول القطط والكلاب, أخذت تفوح في الحارة مضمخة جدران البيوت بألوان مستحيلة, وخارجة إلى فضاء المدينة لتملأه بحريق هائل, وكانت الذاكرة تعود إلى الوراء, ذاكرة البيت الآيل للسقوط, والأب والأم والأخ والأخت والحارة, ذاكرة سوداء تخلّف في داخله أثراً من الوحل والأدغال المظلمة, يمشي في الحارات الباردة حتى تنتهي الصلاة, ثم يعود إلى البيت متطامناً وراغباً في أن يرمي نفسه من جديد, في دفء الفراش.

ذات عصرية سوداء, كانت الغيوم أقل انخفاضاً من السابق, كانت سوداء متجهمة تثير الذعر, وفي منتصف العصر تماماً بدأت الأمطار الشديدة تهطل, خرج الجيران إلى الشوارع الضيقة, يحفرون وسطها, حتى تبتعد المياه عن أبواب بيوتهم الواطئة, يحاولون أن يفتحوا لهذه المياه المتدفقة بغضب, مجاري من الطين, حتى تذهب إلى هناك, فتلتقي مع مياه شوارع صغيرة أخرى, ثم لا تعرف بعد ذلك, أين يذهب هذا الموج الهادر, وكان يتخيل المياه تتساءل وهي تتلاطم في الشارع الكبير, أين الطريق ?

الحقيقة أنه لا يوجد لها طريق, فهي في النهاية, سوف تظل محصورة وسط الشوارع, لأن كل بيت رفع أصحابه مدخله بالطين, أو الحجر, وهكذا تحولت شوارع هذه الحارة إلى مياه راكدة.

في تلك العصرية الغاضبة والغامضة التي لا تُنسى, حين انفجرت السماء, بعد أن أضاءت البروق ودوت الرعود, خرج الجميع من بيوتهم, التي تشققت سقوفها الخشبية, خوفاً من سقوطها. الجميع هربوا إلى المسجد المجاور, فتكدسوا في ساحته المغطاة بسعف النخيل, بينما رفع الرجال ثيابهم وبدأوا إنجاز مهامهم المعتادة, إذ صعدوا لأسطح منازلهم لتغطية الثقوب بالأسمنت, وهم جميعاً, هؤلاء الرجال, لا يريدون أن يروا بيوت آبائهم تتهاوى أمام أعينهم, فهم يعرفون أن لا مستقبل لهم بدون

هذه البيوت الآيلة للسقوط, في أية لحظة ممطرة, وكل واحد, يتذكر في هذه اللحظة بالذات, تلك اللحظات التي ساعد فيها والده على بناء هذا البيت.
الآن.. في هذه الأوقات, تنشط الذاكرة, وتتراكم الهموم, ممزوجة بالخوف, فيبدو الإنسان مثل ريشة في مهب الريح.

في المسجد استراحت أمه, على كومة من البطانيات التي نقلوها من البيت, واتكأت على عمود طيني بأساس من الحجر, وكان حولها وإلى جانبها الكثير من نساء وأطفال الحارة, نصف عيونهم نوم, ونصفها الآخر خوف.
ورأى جارتهم, تقترب من أمه وتهمس لها, هل بيتكم بأساس من حجر.
قالت أمه: لا, قالت الجارة: سمعت أن البيت المجاور للمخبز سقط على أهله ظهر هذا اليوم.
قالت أمه: رحمتك يا رب.
ثم اقتربت الجارة من أمه, وهو بجوارها يسمع أنفاسها اللاهثة.
قالت: هل سمعت إذاعة لندن صباح اليوم.
ردت أمه: لا.
واصلت الجارة: مسكوا مجموعة من المجرمين وسوف يقتلونهم في ساحة (الصفاة) يوم الجمعة.
سألت أمه: ماذا فعلوا.
قالت الجارة: يريدون أن تكون بلدنا جمهورية.
قالت أمه: جمهورية ?
ردت الجارة: نعم.. يعني بلد بدون حكومة.. فوضى يعني..
قالت أمه: الحمد لله الذي فضح أمرهم ورد كيدهم إلى نحورهم.

أمه تعلم أن الجارة تدرس عند امرأة لتحفيظ القرآن, وهي التي علمتها كيف تدير مؤشر (الراديو) على إذاعة لندن لتستمع لأخبار العالم.
رفعت أمه رأسها إلى السماء, التي كانت أكثر هدوءاً, والتفتت للجارة.

قالت بصوت خافت وكانت تريد إخافة ابنها: ولدي يريدها جمهورية في بيتنا.. يعني فوضى.

اندهشت الجارة بعينيها الواسعتين والجميلتين, ثم وضعت كف يدها على فمها.

قالت أمه: كلما أمنعه عن شيء يصرخ في وجهي: أنا حر.

التفتت الجارة للولد لأنها تعرف أنه المقصود, تلاقت عيونهما, ثم التفتت لأمه بسرعة وقالت: كلام عيال يا خالتي.

أضافت أمه: هذا الولد يحتاج إلى أن نكوي رأسه, ثم ضحكت وهي تنظر إلى السماء, وراحت تسبح وتهلّل وتتشهد, كان ولدها بجانب ابنة الجارة, يلعب بأصابع يدها المرتعشة خوفاً.

عادوا إلى بيتهم بعد توقف الأمطار, لكن السماء كانت نصف غائمة, وفي الصباح كان كل شيء هادئاً, كانت الألوان واضحة, ورائحة مزيج الماء والطين تشعّ في آفاق الحارة. تأمل ضحى بيتهم المفتوح على السماء, بعد أن رفض الذهاب للمدرسة, وتأمل هذا النور الذي يسقط على بيتهم من الشرق طازجاً وحميماً, وعند الظهر هرب إلى الغرفة الصغيرة بعد أن سمع بدخول والده إلى البيت, وكانت النافذة الصغيرة تُسقط على وسط الغرفة بقعة ضوء رائعة, ما تلبث الغيوم أن تمرّ أمامها, تختفي ثم تعود, فبدأ يرسم أشياء كثيرة على الأوراق البيضاء أمامه, كان يفكر أنه لا يكره المدرسة فقط بل ربما, يكره البيت أحياناً بشكل غامض, كانت جارتهم أم أميرة قد خرجت من بيتهم, بعد أن تبادلت مع أمه أخبار سقوط بعض البيوت, وقبل ذلك قرصت أذنه, وقالت بصوت هامس: غداً سوف تذهب إلى المدرسة. قال: طيب, ثم تناول الأقلام الملونة وبدأ يرسم وجهاً لابنتها الجميلة, كان فرحاً لأن بيتهم يقع مقابل باب منزلهم مباشرة, حتى أنه حين يُفتح بابهم يستطيع أن يرى كامل بيتهم. وأحياناً تأتي البنت إليهم, حين ترى الباب مفتوحاً, فتسألها أمه عن أهلها, وعن جدتهم التي تحفظ القرآن وهي أمية وكفيفة. كانت البنت وإخوانها الصغار ينظفون الشارع, صباح كل خميس, ثم يرشونه بالماء حتى يحمرّ التراب وينام, فلا يحركه الهواء, لتنبعث من الشارع رائحة رطوبة لذيذة, وحين يفرغون من هذا العمل يدخلون إلى بيتهم,

يستحمون ثم يلبسون ملابس نظيفة, ويصطفون على عتبة باب بيتهم يتأملون حركة الناس في الحارة.
يذكر ذات صباح باكر, قبل أن يذهب إلى المخبز القريب, أنه رأى جارتهم, تأخذ من (عتبة) الجيران أشياء لم يرها جيداً, ثم لاذت بالفرار إلى بيتها حين رأته. سأل أمه عن ذلك لم تجب, وشعر أنها تخبئ شيئاً تعرفه, عن هذا الأمر الغامض, ولا يعرف كيف أن هذه الحادثة, جعلته يفكر بعالم السحر والشعوذة, فرسم جوار أم الجيران مصباحاً سحرياً, وداخله طفلة صغيرة تحدق في الخارج بعيون قوية, وفي الجانب الآخر من اللوحة البيضاء, رسم وجهاً مدوراً وجميلاً يطل على الحارة من الأعالي وكتب بداخله: أميرة.

استمر الأفق الغربي يلوح بالسواد الذي ما يلبث أن يمتد ويغطي سماء المدينة. النهار ظلام, والوجوه في كل مكان تشعر بسعادة فيّاضة مصحوبة بخوف, وهو بدأ يتعامل مع وقته وأشياء بيتهم بروح أخرى, روح جديدة, واضحة ومنتشية بعد أن كبر قليلاً, يأخذ كأس الشاي معطرا بالليمون, ويخرج إلى الشارع يتأمل سحاباً جديداً, يكاد يهطل على جدران البيوت المتلاصقة, ويتأمل ضباباً قريباً. يجلس على عتبة الباب, حتى وقف وجه أسمر وغريب أمامه, وسأله عن اسم هذه الحارة.
– قال له: الشميسي الجديد.
– قال: هذه هي.. ثم سأله: هل تعرف فلاناً.
– لا أعرفه.
– إنه يعمل سائقاً في إحدى الدوائر الحكومية وله بيت في هذه الحارة.
– كرر له: لا أعرفه.
– قال: إنه رجل طيب وفقير..
وأضاف بطريقة غريبة في التحدث: هذا الرجل اقترض منه أخي مبلغاً من المال.. ومنذ توفي أخي وأنا أبحث عن هذا الرجل.. ثم.. توقف عن الكلام.. وذهب بدأت السماء تمطر, والأرض ترابها يستحيل إلى طين, ذي مسارات مائية صغيرة ودقيقة, كان الجو مظلماً وجميلاً وغامضاً, ويزداد إظلاماً والمطر ينزل خفيفاً بشكل موجٍ,

والجيران بدأوا يطلّون برؤوسهم الخائفة من خلال أبواب بيوتهم المواربة, والرجل يعود من جديد, وقف أمامه مرة أخرى بهيئته الغريبة, يلبس ثوباً شتوياً بلون أخضر, له ياقة طويلة تصل إلى أذنيه, وكوفية صغيرة غريبة الشكل, وحين يتحدث تشعر كما لو أنه فاقد القدرة على النطق, يتحدث بتلعثم وبحروف وكلمات متقطعة تخرج من لسانه بصعوبة.

كان أمامه يحاول إخفاء ابتسامة واضحة, ولكنه سأله إن كان لديهم في البيت أشياء قديمة لا يحتاجونها.

قال له: مثل ماذا ?.

قال وهو يضحك بخجل: أوان.. ملابس. أضاف: أنت تعرف.. البيوت في الغالب فيها مثل هذه الأشياء.. قال له: ليس لدينا مثل هذه الأشياء. لكنه عاد وقال بعد صمت ثقيل وتردد: هل تعرف مكاناً أعمل به.. رد: لا.. قال: لقد خرجت من السجن.. لكنني لم أجد عملاً.. وأضاف: أنا لست مجرماً.. اقترضت مبلغاً من المال ولم أستطع رده.. ولكن..

قال له: الله معك..

قال الرجل وهو يخرج دفتراً صغيراً من حقيبته الجلدية: هل تريد أن أسجل أسمك في هذا.. أشار إلى الدفتر الصغير وهو يضحك..

سأله: ما هذا.

قال: لمساعدة الفقراء.. تدفع مبلغاً ثم أسجل اسمك.

قال له: من أنت..

قال: فاعل خير.

قال له: شكراً.. لا نريد.

ثم مضى الرجل يلهو مع الأطفال ويمشي في الشوارع الموحلة, كما لو أنه يمشي على أرصفة مغبرة, وكان يلتفت له وينظر بعينين مخيفتين.

بعد عدة ليال غامضة, وكان مستغرقاً في النوم, رأى قطاً غريباً يجثو قرب فراشه, ويبادل¯ه نظرة نارية صارمة, رأى في وجه القط وجهاً مشوهاً لذلك الرجل الغريب, تحرك القط في مكانه قليلاً, تحفّز أمامه أكثر, أصدر القط مواء بطيئاً وثقيلاً ومخيفاً,

فراح يرقب حركته محاذراً من أن يدهمه هكذا فجأة ثم يقفز في وجهه, كان يرقبه حتى أطلق مواء بطيئاً آخر, فعوى ببطء في وجهه, رأى الشر يتطاير من عينيه الزرقاوين فابتعد قليلاً, لكنه أطلق مواء صارخاً فعوى عواء عظيماً ثم صحا, وفي الصباح كان يسأل نفسه من أين يأتي هؤلاء لحارتنا ؟

الصورة تأتي من البعد واضحة مثل قمر مكتمل, وكان الوقت أصيلاً ساحراً, فترى النساء عائدات من بيوت الجيران فيما يشبه الركض, بعباءات سوداء, على الأرض الترابية, وفي الشوارع الواسعة المؤدية إلى الشوارع الصغيرة التي تحتضن بيوتهن, كما ترى الأطفال يثيرون الغبار بركضهم المتواصل, والشباب يتجمعون في أركان الشوارع, والرجال يعودون من الأسواق الشعبية التي تبيع بالرخيص, وتسمع في أماكن أخرى همسات خفيفة قادمة, من خلف الأبواب المواربة للبيوت, لبنات صغيرات وشابات, يرصدن حركة هذه الشوارع الصغيرة بدقة, ويستمعن لأغنيات محلية معروفة.

في مكان آخر, هناك في طرف الشارع الصغير بيت طيني منزوٍ, بيت صغير بغرفة مفتوحة على حمام وعلى (حوش) صغير مغطى بسعف النخل, بينما مدرس النصوص العربية, يرقد على سرير خشبي يتوسط الغرفة, التي تطل من نافذة واطئة, على الشارع, كان راقداً وباب الغرفة موصد والعالم خلف هذا الباب غامض.. غامض...

وكانت أشعة من بقايا شمس العصر تنفذ إلى الغرفة, من خلال النافذة الواطئة.

ربما ينام أخيراً...

يغمض عينيه السحيقتين وينام, يدخل عميق الحلم وينسى أحزانه, يدخل وقتاً آخر ينسيه متاعبه, ربما هناك يخرج إنساناً مبتهجاً يحب الحياة, يمشي كثيراً في الشوارع, يلف المحلات التجارية ويتفرج على الناس.

ربما هناك يرى حياته فيفرح, يقابل أحبابه الذين غابوا ويضحك معهم, ربما هناك يركض خلف أحلامه القديمة, لعل بها تطمئن نفسه المتعبة, أو لعله يلملم شتات أشيائه التي تبعثرت أو تكسرت منذ زمن طويل.

عيناه معلقتان في السقف, وخدّه يضيء تحت أشعة شمس تودع, وجسده الفارع, يهتز اهتزازات خفيفة, كلما رمشت عيناه, وهو يرهف السمع لكل الأصوات التي تصله من خارج عالمه الصغير, بعد أن دوّخ رأسه البارحة بخمس كؤوس متواصلة.
ربما ينام الآن..
أو ربما يترك فراشه كعادته مهدود البدن.. يقف أمام النافذة مرتعشاً وهو يبكي..
ربما ينام الآن.. ربما ينام إلى الأبد.
زوجة مدرس النصوص العربية الذي ترك المدرسة.. سألته:
- ماذا جرى لكم يا رجال ؟
- سألها: ماذا ؟
قالت: المريض والمتعب والذي لا يترك داره..
لكنه استمر راقداً دون أن يشعر بأي شيء, سوى حزن ذاكرة انفردت بالتعب الطويل.
فحصه طبيب ثم حقنه بمصل وسأله بعد ذلك: بماذا تشعر الآن ؟
أغمض الرجل عينيه, وقال بصوت له رائحة الموت, أشعر كما لو أنني أريد أن... أنام. وهو يعلم أنه أفاق للتو.

أما شيخ المسجد, فقد خلع ثياب المريض, وصب على جسده ماء الزعفران, واستمر يقرأ آيات القرآن حتى أصابه الإعياء, لأن الرجل المريض لم يكترث لشيء وكل ما فعله وهو راقد, أن ألقى نظرة على وجه الشيخ وكانت نظرة اندهاش, ثم مال بوجهه عنه ونام, حتى ارتفعت رائحة الحزن والغضب في الحارة, وأخذت تفوح, وتكسو الجدران بأثرها الرمادي الغامض, فقال الناس أشياء كثيرة عن الحياة وعن غضب الله, أما الشيخ, فقد خرج من بيت المريض يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

بينما هناك, في غرفة مضيئة دائماً, أعلى هذا البيت الطيني الكبير, يسكن مدرس التربية الفنية, شاب أحب غرفته فعبأها باللوحات, يستمع للإذاعات العربية ويرسم, وحين يزورونه يتحدث عن العالم العربي, كما لو أنه يتحدث عن قريته الصغيرة التي يحبها, في عينيه خوف من كل شيء..., لهذا يهرب منه إلى الرسم والكتابة, وشباب

الحارة يقرأون ما يكتبه, أو يتفرجون على رسوماته دون أن يفهموا شيئاً, وفي الليل المتأخر, يأخذونه معهم إلى شارع الحارة, يتناولون العشاء سوية, ثم يعودون, أو يذهب إلى مدرس العربي, يتسامر معه, أو يشرب معه, حتى آخر الليل, قبل أن يغلق مدرس العربي بابه ويعتزل الناس.

طعم السكر

كان قد بدأ يفكر بالجنس بعنف, منذ تلك اللحظة التي كانت مثل شرارة أشعلت جسده حتى الآن, في صباح أحد أيام الجمع, حين ذهب إلى مخبز الحارة, فوجد أنه مليء بالرجال والأولاد والبنات ينتظرون في طابور طويل, وقف معهم ينتظر دوره, وبعد عشر دقائق اقتحمت بنت أصغر منه قليلاً الطابور, ووقفت بين شقيقها الصغير

وبينه, حتى تلامس جسداهما, فلفحت رائحة الشامبو المعطر وجهه, بعد أن لامس شعرها أنفه, ابتعد قليلاً, لكنها كانت تتراجع لكي تفسح مكاناً لشقيقها, وعلى الفور تذكر أميرة, ابنة الجارة, نفس العمر ونفس الطول ونفس الشكل الدقيق, كانت لحظات جديدة عامرة بالحب والغموض والإثارة, أحسّ معها بعمق الحياة التي يعيشها الآن, وشعر بدمٍ جديد يمشي الآن في عروقه الناشفة, في هذا الطابور الملتهب, ولم يفسد تلك اللحظات إلاَّ وجود أحد زملائه في المدرسة خلفه مباشرة, كان يتحرش به, أو يتضاحك في وجهه, يتذكر أنه يتهمه بالغباء لأنه يبدو هادئاً وصامتاً في المدرسة, لكنه كان أفضل منه في الدراسة, وكان يغضب إذا قال له إنك تربية شوارع. الآن زميله يحاول أن يأخذ مكانه في المخبز, وهو لم يفهم ماذا يريد, على وجه التحديد, لم يفهم, بسبب تباطئه في الفهم, لأن الولد يريد الالتصاق بالبنت. فهم بعد ذلك, وقرر على الفور أن يضربه على وجهه, وفي هذه اللحظة التي قرر فيها ارتكاب هذا الفعل, وكان يلتفت إلى زميله ببطء لتنفيذ ما فكر به, فوجئ بضربة قوية على رأسه أشعرته بالدوار, واحمّر وجهه خجلاً, ثم ترك المخبز يريد أن يلحق به, لكن زميله هرب, فعاد إلى مكانه, وهو ينظر للجميع حوله, بخجل, وبعيون شبه دامعة.

في ذلك اليوم, بعد تلك الحادثة, التي وقعت صباحاً في مخبز الحارة, كان بدأ يسأل نفسه أسئلة كثيرة عن معنى صمته وهدوئه: لماذا لا أبدأ في الدفاع عن نفسي قبل هجوم أي ولد ?, ولهذا قرر أن يصفع هذا الولد, حال مقابلته له يوم السبت في المدرسة, وفكر أن يلتفت كثيراً إلى أميرة وأن يقترب منها, ربما يشم رائحة الشامبو المعطر في شعرها.

خلال أيام طويلة سيطرت عليه فكرة أن يُقبّلها, وظلت هذه الفكرة معه عدة أشهر دون أن ينفذها, لكنها شعرت, فقط, أنه بدأ يهتم بها, ويكون معها أكثر لطفاً, ولم تفهم بالتأكيد معنى كل هذا.

هل أنا سعيد.. هل أنا مبسوط في حياتي

هذه هي أسئلته اليومية التي لم يملّ منها على الإطلاق..
أما الإجابات.. فقد ملأت أكواماً من الأوراق, التي حفظها كأنها صكوك ملكية, يعود لها كلما شعر بالقلق والتعاسة, فأقنع نفسه أن كل الناس يعيشون هذه المشاعر المتقاربة بين الفرح والحزن.. فدخل مرحلة قراءة كل شيء.

بدأت أميرة تصبح صديقة له, بدأ يدخل بيتهم, وهي بدأت تتردد عليهم, وذات صباح باكر من أيام العطلة الصيفية, ركض إلى عتبة الباب كعادته, فوجدها هناك, قد تركت باب بيتهم مواربـاً, وجلست إلى جوار عتبة بابهم, كانت تتسلى بالتراب المعجون بالماء, وترسم منه عرائس وعرسان, جلس بجانبها, فحكت لـ¯ـه عن أهل الحارة, وهم داخل منازلهم ماذا يفعلون, وعن أي شيء يتحدثون, وهو يتأمل هذه البنت النحيفة التي تتحرك أمامه بروح خفيفة, وشقاوة خجولة في عينيها, بقميص نومها الوردي القصير والمتكسر, وجديلتها المربوطة مثل ذيل المهرة الصغيرة, كانت تصغره بعام, لكنها تعرف أشياء كثيرة, حكت له عن جارهم الذي يعمل في البلدية ويضرب زوجته عندما تغسل دارهم بالماء, الذي يخرج إلى الشارع, وعن المرأة التي تقرأ على النفوس المريضة, وعن الجار الذي تزوج من هندية صغيرة, وعن بنت مسكونة بالجن, قالوا إن روحها عندما تنام تملأ فضاء الحارة برائحة غريبة, وعن جار آخر, فصلوه من الجامعة, فحمل بيده مذياعه وبيده الأخرى حقيبة ملابسه الصغيرة, بعد أن أطلق شعر رأسه الطويل, وهجر الحارة والمدينة والوطن, ولم يعد منذ سنوات طويلة, ولا زالت أمه تبكي عليه, حكت له عن أشياء كثيرة في أمسيات مقمرة أو معتمة أو سوداء, وفي الغالب نهارات لا يرون فيها من الشمس غير سطوع يبهر القلوب الكئيبة. كانت وهي تتحدث ترتجف أطرافها ثم كل جسدها, كانت ناعمة وجميلة, وفي صوتها حنين, وكانا يتشاجران أحياناً, كان يمازحها بنباله الصغيرة, وكانت حين تغضب تشد شعر رأسه حتى يكاد يبكي, ثم تهرب, ومرة أعطاها جهاز التسجيل الذي اشترته والدته له بعد النجاح إلى الصف السادس الابتدائي, تضع الجهاز على عتبة باب بيتهم ثم ترفع الصوت لتصدح أغاني طلال مداح وعبادي الجوهر, ينظر في الجهة الأخرى, فيرى والده قادماً من السوق, على رأسه كيس

الخضار, وبين يديه ديك أحمر, يأخذ جهاز التسجيل ويهرب إلى البيت, يدخل والده, وخلفه أميرة المبهورة بهذا الطير الكبير, يرمي الأب الديك في وسط الدار, يركض مذعوراً ليتطاير ريشه في فضاء البيت.

يقترب منه والده ويصفعه, كعادته مساء كل يوم, يقول له: سوف أسجنك لو أخرجت المسجل للشارع مرة أخرى, بكى ثم راح يبحث عن الديك بعينين دامعتين, وشعر أن أميرة أشفقت عليه, فزاد حرجه, ناداها بصوت باكٍ, تعالي, ثم حاصرا الديك ومعهما أخوه وأخته, في زاوية من البيت حتى استكان, وراحوا يتأملونه. ديك ضخم يشبه الطاووس, ينظر إليهم كأنه رجل, وكان لوالده مثل هذه الحركات الغريبة, يدخل إلى السوق عصراً, وقبل المغرب يعود مشياً على الأقدام بكائن عجيب, داجن, تيس, أرنب, حمام, وهذه المرة ديك, ديك محاصر الآن في زاوية, وقد بدأت المواجهة بينهم, وقفوا جميعاً أمام بعض, وكل واحد ينظر للآخر كما لو أنه غريم له, حتى اقتربت منه أخيراً, استمالته فمال لها, ثم فجأة استكان الديك في حضنها, وبدأ يتأمل وجهها, ثم ينظر في وجهه بعداء, حتى قالت له: أغمض عينيك حتى أجعل الديك يقبّلك, أغمض عينيه وشعر بمنقار الديك يتحسس وجهه, ظل مغمضاً عينيه حتى صدر أمر حبيبته, افتح عينيك, فتحهما, وكان الديك بانتظاره, يقفز من حضنها وينقر عينه, بكى حتى أظلم الليل, والبنت هربت إلى بيت أهلها, فوضعت أمه الملح الذائب بالماء في عينيه, ثم نام شبه مريض وبجواره أخوه وأخته الصغيران, وفي وسط الليل استيقظ, فرأى أن الجميع قد ناموا, ذهب للمطبخ, تناول قطعة خبز وحشاها بالسكر, وذهب إلى الغرفة الصغيرة, فتح التلفزيون وبدأ يأكل, كان ‾ت حصيرة النايلون الملونة والمفروشة في الغرفة قد انكمشت على نفسها, فبانت عورة الأرض, وكشفت عن أرضية أسمنتية مقشورة ومحفورة كأنها أخاديد على كف أرضٍ مائلة, كان وهو جالس يشعر بانحناء الغرفة, يجلس مائلاً إذ تميل الأرض باتجاه الباب, وكان غارقاً في تأمل هذه الصندوق الذي يصدر أصواتاً ويُظهر صوراً تتحرك, كان بيده قطعة خبز بالسكر, وفي اليد الأخرى زجاجة (كولا), وبجانبه كتاب النصوص العربية, لكي يحفظ أنشودة حرب لعنترة بن شداد, وكان طلال مداح في ذروة المجد يغني, عندما انطفأ النور كالعادة, فأظلمت شاشة التلفزيون وأظلمت

الغرفة, وغرق البيت في ظلام دامس, والحارة أيضاً أسلمت نفسها لخيوط الظلام, انطفأ كل شيء, نهض من مكانه مرتبكاً, وبدأ يتعثر خارجاً من ميول الحجرة, يجرجر خوفه, فتحضنه ساحة البيت, تلمّس العمود الطيني الذي يقع في منتصفها, ثم قبض عليه, التفت إلى اليسار قليلاً, فرأى أمه ترقد في زاوية من مساحة البيت المفتوحة على الفضاء القمري, وحولها أخوه وأخته, وكان والده نائماً في السطح, ولم يعرف أن أمه كانت يقظة, إلا حين سمعها تسأله:

إلى أين ?..

قال: إلى الشارع.

انعطف يميناً, ثم مشى مروراً بالحمام المخلوع الباب, وكان يتنفس رائحة الجو الصيفي الخانق, حتى وصل إلى الباب المفضي إلى الخارج مباشرة, فتحه فدهمه تيار هواء لذيذ, وكان قد سمع بعض الأصوات الخافتة, تأتي من بيوت الجيران المظلمة, التي يخرج من بعضها أنوار باهتة لشمعة أو سراج (قاز), وأصوات أخرى تأتي من نهاية الشارع الصغير, إذ يتجمع بعض شباب الحارة, يتحدثون ويدخنون. جلس على عتبة باب بيتهم وبيده خبزة السكر, وكان يشعر بألم حول عينه التي نقرها الديك, حتى رأى حجراً صغيراً يتدحرج أمامه وسط هذا الهدوء العميق, رفع رأسه ليرى خط سير هذا الحجر, فوجد باب الجيران المقابل موارباً, ولاحظ حركة خفيفة داخل ظلامه, نهض, مشى إلى باب الجيران المقابل, توقف أمام الفتحة المظلمة, وراح بفضول يتطلع إلى الداخل فلم يرَ أحداً, تقدم أكثر برأسه, فوجد يداً تأتي من أعماق الظلام, لتنتزع قلبه من مكانه, قبل أن تشد شعر رأسه إلى الداخل, ثم يداً أخرى على فمه, مع ضحكة صغيرة, انطلقت بهمس رغماً عنها, لكن أنفاسه بدأت تتلاحق بقوة, ونبض قلبه يسرع الخطو, وجسده يرتعش كأنه ضوء يهتز, مكث لثوان, مستمتعاً بنعومة الأصابع وطراوتها على فمه, رفع يده فاصطدمت بالصدر اللين, وبدأ يشعر برغبة في تحسس هذا الجسد الذي أمامه, فرفع كفه الأخرى ببطء, ولف ذراعيه على الكتفين اللينتين, ثم ضم الجسد الناعم إلى صدره, فاصطدم الوجهان الصغيران بنعومة, وشم رائحة أنفاسها فتذكر فتاة المخبز, وارتفعت حدة كل شيء,

كانـت تحـاول الإفـلات بهـدوء, وهـو يتضـاحك معهـا بهمـس, كـي لا تكشـف رغبتـه الحقيقيـة, ثم اقترب منها أكثر محاولاً الالتصـاق بها, وهي تحاول الفرار حتى قبض عليها لحظات, أجلسها على العتبة الأولى لدرج بيتهم الداخلي, ورفع ملابسها, وقبلّها في كل أنحاء جسدها العاري خلال دقائق, قبل إضاءة النور, في ذروة اللذة, فواجهته ساحة بيتهم, رأى أهلها ينامون أيضاً في ركن وسط البيت, نفس المكان الذي أخذه أهله لنومهم, تأمل وجهها المرتبك وجسدها الناضح بالعرق, فرأى على شفتيها آثار خبز وسكر, تركها وركض إلى الشارع, ثم إلى بيتهم, أغلق الباب وهو يقطر عرقاً, كانت أمه قد أغلقت أنوار البيت وعادت للنوم, فذهب إلى غرفة التلفزيون المظلمة, رمى جسده على حصيرة النايلون الملونة, وبسرعة راح في حالة نوم يقظ, كان طعم السكر في فمه مازال قوياً, وكان يراها بجانبه, اقترب منها حتى اصطدم بصدرها الناعم, فرأى وجهها القمري الطفل أمام وجهه, قبّلها بوله, فأحس طعم سكرها في ريقه, ولأول مرة شعر أنه على وشك القذف, أفاق في صباح شقي على ثياب مبلولة, وعلى إحساس حاد وعميق بالبهجة والخوف, فواصل النوم يترصد ما في هذه اللحظة من متعة نادرة, بفيض من الحبور والدهشة.

خلال هذه الفترة بدأ يكره شباب الحارة الحفاة, ربما لأنه لم يكن بمستوى عزيمتهم وقدرتهم على العراك الدائم, كانوا في حالة عراك دائمة كالقرود الطليقة, وبشكل يجعله في حال عدم وصل دائمة معهم, كانوا يحاولون التواصل وهو يعتذر.

ربما أيضاً, كان يكرههم بسبب انحراف بعضهم, فقد بدأوا يأكلون حبوب الهلوسة التي يحضرها (شاب غريب), من حي منفوحة. ورأى ذات مساء ثلاثة من أولاد الحارة, في صورة صدمته. كان الوقت ما بين المغرب والعشاء, حين كان خارجاً من البيت لشراء أشياء من المكتبة لأخته, ففي الطريق من بيتهم إلى الشارع الرئيسي العام, كان هناك بيت مهجور يقع قبل الحفرة التي ابتلعت ذلك الطفل, هذا البيت الكبير المهجور, كان له باب مخلوع, وحين حاذى باب هذا البيت, سمع أصواتاً هامسة تصدر من الداخل, توقف قليلاً فتبين صوت ابن الجيران منصور, اقترب من الباب, فرأى منصور ومعه ولد آخر يعرف وجهه ولا يعرف اسمه, كان يأتي إلى شارعهم

دائماً لزيارة منصور, كان منصور وصاحبه قد رفعا ثوبيهما, ويقف أمامهما مباشرة ولد ثالث لا يعرفه وقد تعرى تماماً. تراجع للخلف بعد أن لمحاه, ثم واصل مشواره, وهو يفكر بهذه الصورة التي لا يعرف لماذا هزت كيانه بالرعب, ليس اشمئزازاً ولكن, خوفاً, من فكرة أن يكون واحداً منهم في يوم من الأيام.

دخل فترة المراهقة بهدوء, لكن بحالة تنافر واضحة مع والده, لم يكن عداءً ما بينهم, لكن عدم اتفاق دائم على كل شيء, وبدأ يحس بميل كبير ناحية الأوراق والأقلام, والنساء, اشترى دفتراً أزرقَ وأقلاماً ملونة, وبدأ يكتب كل شيء يمر في حياته, أحداث عائلية, حالات ولادة في بيوت الأقارب, مباريات كرة القدم الهامة التي كان يحضرها في الملعب رغماً عن والده, الأمطار القوية التي تهز قلوبهم خوفاً في أغلب الأحيان, وأيضاً يحفظ قصائد الشعر من الجرائد والمجلات في هذا الدفتر, ثم لاحظ ظهور حب الشباب على وجهه, وتغير صوته, وبدأ يشعر بالإحراج والتعرق لمجرد حديث عابر مع امرأة, وحين بدأ التعود على هذا الوضع, لاحظ اختفاء أميرة من الشارع, أصبح خروجها قليلاً, وحين تخرج إلى عتبة باب بيتهم تضع منديلاً وردياً على شعر رأسها, فتبدو أكثر جمالاً وأكثر فتنة, وكانت حين يقابلها في الشارع مصادفة, تهرب بسرعة إلى البيت وهي تضحك, بعد أن بدأ صدرها في التعبير عن ذاته.

بدأ يترك البيت لعدة أيام مع بعض الأصدقاء من خارج الحارة, بالذات في الشتاء, حين كانوا يقيمون مخيماً خارج مدينة الرياض, بعد أن اشترى جارهم لابنه وليد سيارة صغيرة, تعلما عليها القيادة, وبدأوا الانطلاق نحو الحياة. في هذا المخيم تعلموا التدخين والشرب والسهر والنساء أحياناً, وسافروا بهذه السيارة الصغيرة إلى أغلب مدن البلاد, وإلى الكويت والبصرة, من أجل (فريدة), والسباحة في شط العرب, قبل حرب العراق وإيران, يحمل معه دائماً عالمه الخاص, أغنياته المفضلة, كتّابه المفضلين, صحفه المفضلة, كان التدخين والشرب والسهر والسفر في عطلات الصيف جزءاً من حال تمرد غير مفهومة, رغبة في الابتعاد عن حال الرتابة التي

تعيشها حارتهم لا أكثر, وهي حال الملل التي جعلتهم ذات مساء, وهم في مقهى شعبي, يفكرون في كتابة أوراق يطالبون فيها بأشياء كثيرة, دون الإقدام على الفعل, لسبب بسيط, أنهم قرروا في لحظة الملل تلك, أن يسافروا إلى الكويت لسبب تافه, وهو أن يضعوا مراتب جلد لسيارة صديقهم وليد الجديدة.

قد تكون أحلام اليقظة هي ملاذه الوحيد, إنها الجحر الآمن الذي يهرب إليه حين يشعر بملل ورتابة أجواء الكبت المحيطة بحياته, كان يرى أن كل شيء يسير وفق قوانين صارمة, حتى في (الكلام) مع الناس يفترض أن تقول (كذا)... في الموقف كذا, ولا تقول (كذا) في الموقف كذا,... بمعنى, يجب أن تحفظ لغتهم جيداً, وتعرف كيف تردد كلام الرجال مثل الببغاء, حتى لا يقال إنك لست رجلاً, لكن أحلام اليقظة تقرّبه من ذاته الحقيقية, من ذاته المنطلقة, كان يتخيل الرياض خالية, إلاّ من الناس الذين يراهم أكثر قرباً لروحه, وكان يتخيل نساء صغيرات يعبّرن دائماً عن حبهن له, مثلما كان يحلم بأبٍ آخر.. وحياة أخرى مليئة بأميرة وبطعم السكر.

قبل سنوات قال لأمه, وقد وضع رأسه على فخذها, بوضع نصف نائم, بينما كانت تتحدث مع والده وأخواله: هل لربي أب ؟
قالت: اسكت يا ولد..
ثم.. نام

هذه اللقطة لا تفارق ذاكرته على الإطلاق, صار فيما بعد يحاول أن يقود ذاكرته إلى اللقطات الأكثر إرهاباً لقلبه, مثل صورة منصور وصاحبه والولد الذي تعرى أمامهما, ولهذا سجل هذه الصور في دفتره الخاص حين كبر قليلاً. في ذلك الوقت كان والده يتحدث عن أشياء كثيرة, وكانت أمه تردد: سبحان الله.. سبحان الله, بينما كان خاله الكبير يتحدث كأنه يخطب في مسجد, حتى أنه نهره بقوة حين سأل أمه, ذلك السؤال عن الله.

في المسلسل التلفزيوني يقول الناس لبعضهم صباح الخير..

ويستغرب لماذا لا نتحدث مثلما يتحدثون في التلفزيون, كان يظن أن والده وحده يرفع صوته على أمه, حتى سمع خاله يصرخ في وجهها ذات يوم, وكان يريد في تلك اللحظة أن يضربه. حتى آباء الجيران وأخوالهم وأعمامهم, لا يقولون صباح الخير لبعض, ودائماً ما ترتفع أصواتهم بشكل مخيف.
جميعهم يبدون في شكل مختلف, حين يزورهم الأغنياء من الأقارب, يهتمون بهم بشكل مبالغ فيه, ولهذا لم يشعر بود ناحية هؤلاء الأقارب, الذين كانوا يبدون كأنهم ممثلون في التلفزيون, وكان يتعمد أن يذاكر دروسه وسطهم, لكي يعرفوا أنه متعلم مثلهم.

دائماً كان يملأ دفاتره وكتبه بأفضل الصور والكتابات التي ينقلها بالحرف من الصحف والمجلات..

على سفرة الأكل, تبدأ المشاكل الحقيقية:

– لماذا لا تأكل مثل (الأوادم)..

أو.. مثلاً:

– هل قلت.. بسم الله.. يا حمار..

في المسجد, بعد صلاة العصر, الشيخ يخطب, شيخ يعرفونه, جاء من خارج الحارة, ويبدأ الأولاد في التسلية بالاستماع له, وأحياناً يتبادل الأولاد نظرات صغيرة ثم يضحكون, وفجأة, صفعة على الرقبة من الخلف, يلتفت للخلف, من أرسلها, لا يعرف, كل من خلفك هم: آباء... وكيف يكون أباً وهو لا يضرب..

يفكر:

جميعنا هكذا, نحن والجيران, وأقرباء الجيران, الابتسامات واللغة المهذبة نقدمها للآخرين فقط, بينما, نحن, نتبادل الشتائم والضرب. الكلام في السياسة ممنوع, لأن الجدران لها آذان, صورة شاعرية, جدران وآذان, و... إلى آخره.

خوف.. من كل شيء..

مرة.. دخلت شقيقته ومعها شقيقه, إلى غرفته, أسمعهم شريطاً جديداً وأعطاهم مجلات أطفال..

دخل والده: علمهم أصول الدين يا فاسد..

هنا سأله شقيقه الصغير:

هل الغناء حرام..

قال له: إذا أكملت دراستك.. ونجحت, اقرأ الأحاديث عن الرسول وسوف تعرف بنفسك..

حين درس خالد في الجامعة, صار له مكافأة شهرية, خجل والده أن يأخذها, قال له: لست محتاجاً لمكافأتك.

تساءل خالد: هل كان يفكر بأخذها.. أيضاً

هنا بدأ والده يكبر.. ويتعب..

وأخته عفاف.. صارت مراهقة جميلة.

وأخوه أحمد.. دخل عالم الوسواس الديني.

كبروا جميعاً, ربما في لحظة واحدة, لحظة ليست زمنية, لكنها طبعت لحظاتها الماضية في جدران المكان...

من المكافأة بدأ بأقساط سيارة صغيرة, مثلما فعل صديقه, كان قد تعلم القيادة معه, هنا غضب والده: لماذا لم تخبرني, لماذا لم أذهب معك?!
بينما قالت والدته: مبروك.

في لحظة أخرى, دخل شقيقه الصغير إلى البيت, وبيده قطعة قماش تقطر طيناً, ركضت أمه وأخذتها منه, أين وجدتها يا ولد, قال: جوار الباب. لبست أمه عباءاتها, ثم خرجت بعد أن وضعت قطعة القماش في كيس, ركض خالد خلفها, إلى أين يا أمي, نادته, ركض خلفها, حتى وصلا إلى تلك الحفرة, التي كانت أثراً لبئر قديمة, وترقد فيها جثة طفل سقط سهواً, رمت قطعة القماش في أعماق الحفرة, وهي تقرأ آيات من القرآن الكريم, حين عادوا قالت لهم: هذه أعمال سحر لتفريقنا عن بعض, ثم أطلقت تنهيدة وهي تجلس وسط البيت بعباءتها, وقالت: الكفرة.
أشفق عليها في تلك اللحظة, ودّ لو يحضنها ويقبل رأسها, لكن لا يدري لماذا لم يفعل, مثلما يحصل حين يغيب عن والده طويلاً, لكن حين يقابله يشعر بشيء يقف بينهما, رغم معرفته بشوقه له, هنا كانت عفاف مذهولة !!.

في عصرية أحد أيام الجمع, سمع عن انتحار ولد الجيران, منصور, لم يصدق في بادئ الأمر, وكان آخر مرة رآه, مع اثنين آخرين, في البيت الكبير المهجور الذي يقع قبل الشارع الرئيسي حين كان في وضع شبه عار, واصل السير ناحية بيتهم للتأكد من الحادث, يسير في الشوارع وحيداً, تلك الشوارع الترابية المثيرة للمخيلة ولكل المشاعر, كان يرسم بقدميه لوحات كأنها موسيقى, يسير ببطء وعيناه على الأرض, يرسم خطاً واضحاً, يقطعه بخط آخر ثم دائرة, ثم نقاط مبعثرة تعزف على وتر الإحساس الحاد بوطأة الوقت, والإحساس الحاد تجاه الكثير من الصور المحبطة والمثيرة, لم يكن يفهم معنى كثير من القصص التي تدور في حارتهم, كان أحياناً يظن أنها قصص أساطير من نسج خيال جامح, فهل يُعقل أن هذا الشارع الطويل الذي يمرّ به كل يوم, ينطوي على هذه الحكايات المثيرة للخوف والحزن والألم, والشفقة أيضاً.

يتحدثون عن ذلك الشاب (منصور) الذي يسمعون عنه كثيراً ويرونه قليلاً كأنه أسطورة من الزمن القديم, يقولون إنه في مساء الجمعة الماضية, أشعل النار في جسده وأن بيتهم تحول إلى كومة رماد, وأن (الولد) نقلوه إلى المستشفى بين الحياة والموت, ثم أخيراً فارق الحياة هناك.

- لماذا...

- لا أحد يعرف.. لأن البيوت أسرار.

وصل بيت الولد المتمرد, الذي قالت عنه أخته (مسكين) وقالت عنه أمه (مجرم), رأسه إلى الأرض وقدماه ترسمان الخطوة على لوحة التراب, هذا هو بيتهم, ولكن أين (كومة الرماد) التي يتحدثون عنها, لم يتغير في بيتهم شيء, يقف أمام باب البيت وقتاً ربما يخرج أحد منهم, قد يرى كومة الرماد في الداخل, ينتظر أن يفتح الباب, حتى وصل والدهم وهو يحمل كيسين من الخبز والبرتقال, يفتح باب بيته, يدخل بسرعة ويترك الباب موارباً بانتظار ابنه, يطل خالد على مدخل البيت ويرى فوق الستارة من الخلف, علامات سوداء في أعلى الجدار كأنها آثار حريق (مثلاً) أو كأنها.... لا يدري, الآن بدأ يمسك أول الخيوط, كومة الرماد تحولت إلى خيوط سوداء فقط, نعم كان هناك حريق, ولكن ربما ليس مقصوداً, يعود وهو غير قادر على الربط بين ما سمع وما رأى, يسمع حركة خلفه فيلتفت, يرى ابنتهم الصغيرة تطل برأسها تنادي شقيقها, كانت بجديلتيها المعهودتين, وعينيها اللامعتين مثل عيني عصفور, وأنفها الأحمر الصغير, يعطي وجهها شكل القطة, تلاقت أعينهم, ابتسم لها, كانت على وشك الدخول إلى بيتهم, قبل أن تُخرج له لسانها الأحمر, ثم تبتسم بسخرية وتختفي, وهو عاد إلى شارعهم يحدث نفسه بأن الصورة الأخيرة لوجه القطة, أفضل من كومة الرماد.

أقبل على شارعهم الصغير وهو يفكر بأشياء كثيرة, لماذا يحاولون أن يقتلوا أنفسهم ?! وتذكر أن (منصور) كان مريضاً نفسياً, وأنه عانى كثيراً قبل أن يموت, لم يحب

المدرسة يوماً, كان الجميع يضربونه, في البيت, وفي المدرسة, لكنه كان يضرب الجميع في الحارة.

هل مات حقاً ? هل كان هناك حريق بالفعل ? كيف يحدث هذا وأخت منصور, ما زالت تمارس عادتها بإخراج لسانها الصغير للمارة وتضحك ?

رأى صديقه وليد يجلس على عتبة الباب الخلفي للجيران, وقد شمّر عن ساعديه, ورفع ثوبه إلى ما فوق ركبتيه, وبين يديه وفمه قطعة كبيرة من البطيخ, يسيل ماؤها على وجهه, جلس بجواره حائراً, قال له الحكاية كاملة, وأضاف عليها مخاوفه وأسئلته.. لكن وليد سأله:

- من أخبرك بموت منصور ?
- قال له: هي قالت هذا.
- سأله: من هي ?
- أجاب: أختي.
- قال له: اسكت, منصور مات في حادث آخر (ثم تلفت حوله), سوف أخبرك فيما بعد.

كان وليد مرتبكاً, وخالد يشك في أشياء كثيرة حوله, وبدأ أيضاً ينسج حكاية جديدة, لموت الولد الشهير والمتمرد منصور, لكنها بالتأكيد سوف تكون بعيدة عن بيتهم الذي لم يتحول بعد إلى كومة رماد, وقريبة من وجه (القطة), الذي يبدو أنه أحبه أيضاً وهذا يكفيه. يترك وليد على عتبة الباب, ويواصل سيره, في حارة, كأنها سفينة ثملة, تتحرك في كل الاتجاهات, وما بداخلها ليسوا سوى أسماك حزينة, بينما رائحة ليمون عارمة بدأت تفوح في الحارة.

يمشي في الطريق وحيداً, ثوبه الواسع يحرّكه هواء لذيذ, يمشي وهو يقبض بيدٍ ساخنة على ذكريات تنهض الآن بقوة, على إيقاع شمس العصر الذي منح جدران هذه البيوت المتلاصقة لون الليمون.

يمشي بطيئاً, ويحرك بقدميه هذا التراب الراكد.
هذا هو الطريق الذي يعرفه منذ سنوات, فيه تعلم المشي والكلام.
من هنا سوف ينفذ إلى الشارع الأسود المعروف, الشارع الأسود الصامت الذي فقد بهجة ضجيجه, ولكن أين أهله وناسه, وكيف فقد حياته هكذا فجأة؟!
لقد مرّ وقت كان يعتقد فيه, أن كل سكان الأرض, يسكنون في الشارع الأسود المشهور, شارع الأغاني.
إنه قلب الحارة النابض, ومقياس درجة أفراحها وأحزانها.
كان في صباح كل خميس يصحو باكراً, ينزل من تراب سطح البيت الذي يضم نوم العائلة كل مساء, ثم يهرب إلى هناك, إلى شارع البهجة والناس, شارع طويل بيوته متلاصقة مليئة بالبشر, لكل بيت حكاية, وكل حكاية مشروع رواية.
في تلك الأيام قام شباب هذا الشارع بطلاء جدران بيوتهم الخارجية بالأبيض, لكن أطفال الحارة غطوا هذه الجدران البيضاء بكتابات سوداء لأغاني مشهورة, فصار اسمه الشارع الأسود أو شارع الأغاني.
أول هذا الشارع يسكنه تاجر عقار لا يرونه, له زوجة سمينة وبيضاء تبيع الباروكات وأدوات الزينة لنساء الحارة, ولها ابنة نابهة تملك مذياعاً حديثاً تعتني به كثيراً, وترفع صوت أغانيه في أغلب المساءات, مات تاجر العقار فبدأت زوجته تشتري بيوت الحارة واحداً تلو الآخر لتنافس الشيخ إبراهيم العقاري, حتى وصلت إلى بيتهم, فرفض جدّه مساومتها, قالت له: إن البنك العقاري سوف يقدم لكم قروضاً لتسكنوا في الأحياء الجديدة, وسوف تنخفض أسعار بيوت الطين, لكن جدّه كان مُصراً على رفضه, ثم جاء الشيخ إبراهيم العقاري, وقبض على الحارة, فتولى العقار وشؤون المسجد والعمودية.. وكل شيء.

وهناك في الطرف الآخر من الشارع يسكن تاجر الرز والسكر الذي امتلأ مالاً فتزوج من ثلاث نساء, واحدة من الرياض وثانية من مصر وثالثة من الشام, كان يفتخر كثيراً بدمه العربي النقي, ولكن النساء أنجبن له عشرين روحاً فسكت الأب عن الكلام, وصار يمشي في الشوارع وهو يحدث نفسه.

أما في منتصف الشارع الضيق فيسكن موظف البلدية الذي تزوج صغيراً وأنجبت له زوجته الكثير من الذكور والإناث, يصارعهم كل يوم مثل ديك, وحين يتعب منهم يهرب إلى سطح المنزل, يدرب حمامه الذي في الأعشاش على الطيران البعيد.
والآن.. يشعر خالد أن المكان بكامله تاريخ لذكريات أسطورية وحزن قديم.. والطريق لغة ضائعة الخطى.

الآن شارع الأغاني فقد غناءه, لأن زوجة تاجر العقار فقدت سُمنتها وبياضها, وبيوتها الطينية التي اشترتها فقدت قيمتها, فلم تعد تشتري الباروكات وأدوات الزينة لنساء الحارة, وتعطل مذياع ابنتها النابهة فلم تعد تستمع للموسيقى, وبدأت تحافظ على روح مغلقة, وتاجر السكر لم ينجح أولاده في المدارس, وفقد أبو الذكور حمامه في المسافات البعيدة. وبدأ زمن إبراهيم العقاري.
يمشي وئيداً في المسافات الطويلة والضيقة, في رأسه وجه مملوء بسمتٍ جميل, لازال يذكر ملامح طفولته, وفي قبضة كفيه ذكريات وخوف قديم وتعب وخسارات, وبعض أغنيات تتساقط ملامحها خلف ظهره.. وهو يمشي, بذاكرة متعبة وروح مريضة.

عاد, إلى بيتهم, قابلته أمه بخبر انتقالهم الشهر القادم, إلى بيتهم الجديد الذي أكمل والده بناءه, في حي البديعة, كانت أمه فرحة بالخروج من بيت الطين الضيق إلى (فيلا) واسعة, لكنها أيضاً تفكر في إخوتها وأخواتها الذين انتقلوا لأحياء أخرى, بدأت تشعر بتشتت الشمل الذي جمعهم في هذه الحارة, بينما استقبل خالد الخبر بشعور محايد, لأنه كان قد عقد العزم على استئجار شقة, لكن مع الإبقاء على غرفة له في بيت أهله الجديد, حتى لا يشعروا بفقده أو يشعر بفقدهم..

كان مهموماً, بعبء دفتر مليء بالأحداث والذكريات والأحلام, وكانت الصور الأكثر استثارة لروحه هي الأكثر سرية, كان يمشي إلى غرفته في البيت أو إلى الشارع, وفي رأسه صورة واحدة لبنت جميلة كاملة العري, لكنه في لحظة استغراقه في هذه العادة التي يراها سيئة, لم يكن يستطع الفكاك منها, هذه الصورة تلبس وجوهاً كثيرة

رآها, لكن وجه أميرة, وبنت المخبز, كانا الأكثر طغياناً, وأحياناً كانت تبدو له فكرة الانتحار مغرية, لكن سرعان ما يطردها, لكي يسلي نفسه, بمتعة أن يتصور جسد امرأة عارياً, بالذات قبل أن ينام, حين يتصور, مثلاً, أنه نائم على ظهره بعضو منتصب, وفوقه فتاة جميلة, تنتظر أن يحتضنها.

كان يتساءل عن علاقته بابنة الجارة أميرة, هل هذا هو الحب, بكل بساطة لم يكن يعرف, لكنه بدأ يطرد فكرة, أن يتخيلها عارية أمامه, أحياناً يقول إن هذا بسبب احترامه وحبه لها, وأحياناً يقول, المفروض أن أراها مثل أختي, ولهذا وقع عدة أسابيع فريسة صراعات وأسئلة, فاشترى بعض الكتب والروايات, أمضى وقتاً طويلاً يقرأ, لكن لم يجد ضالته, لأن أفضل الكتب التي قرأ عنها في المجلات, ليست موجودة أصلاً في المكتبات, بينما ظل وخز الضمير يؤلمه, ويثير في روحه الرعب والشكوك, فهو لا يعرف ماذا حصل لها في تلك الليلة المظلمة, هل حدث شيء ما, أم لا, هل هي تعرف ماذا حدث, أم لا, أسئلة متتالية, تجعل أوقاته, في كثير من الأحيان, مثل جحيم لا يطاق:

أميرة سمكة حزينة مثل أختي عفاف, هكذا كتب في نهاية دفتره الخاص.

مكان آخر

اشتعل الصباح مبكراً هذا اليوم, نهض على سماء ترسل قيظاً لاهباً, يخرج إلى الشارع, ينتظر وجهاً جميلاً يودعهم إلى الحي الجديد, يقف على عتبة الباب الخشبي, ويغني لكل شيء, يخرج إلى الحارة ربما يجدها هناك, ربما تطلّ عليهم, ربما تسمع أصواتهم في الشارع وتطل, كل الصور أمامه الآن مليئة بوجهها, ربما تخرج الآن, تجلس على عتبة باب بيتهم, تضع يدها على خدها, وتتفرج على أفراح

وأحزان وأحلام حارتهم المتوعكة. قالت كل شيء ذات مساء, وقال كل شيء, وكان أجمل الكلام ما قالته تعابير وجهها, وضوء عينيها الذي ما زال يغمر وجهه برحابة نوره, يشرب من كأس يمرّ الآن بقربه, وضعه وليد ومضى, يضع الكأس جواره, في قاع الكأس تنام وجوه كثيرة مع ورقة نعناع, سوف يودعها الآن قبل أن يغادروا إلى عالم جديد ينتظرهم, لقد مشى في هذه الحارة كثيراً, قبل أشهر من عزلة تشبه الغياب, حتى حان موعد الرحيل, بعد سنوات طبعت أرواحهم على جدران هذه البيوت الطيبة. يشعر الآن أن شيئاً جديداً, وغامضاً يريد أن يعبّر عن نفسه, في هذه الحارة المعتمة, التي لا يعرف بعد: هل كنّا نحبها أو نكرهها.., ثم لمن ستكون بعد أن نرحل عنها ؟

أفاق والده من نوم طويل, نهض من فراشه وهو يشعر بثقل في جسده وآلام في أطرافه, مشى إلى الحمام, وقف أمام المرآة وهو يتكئ على عصاه, لاحظ توقف حالة الدوار التي تصيبه بعد الاستيقاظ مباشرة فحمد الله, نظر إلى شعر وجهه الأبيض, وعينيه التي تشي بمتاعب كثيرة, كان يسمع زوجته وهي تتحدث مع امرأة أخرى, وتكرر: إن شاء الله.. إن شاء الله, وتلك المرأة التي لم يعرفها من صوتها كانت تقول لزوجته: امسحي بالفوطة المبللة بماء القرآن على رقبته وصدره,...... كان صوت المرأتين يأتيه واضحاً, لكنه يشعر الآن, فجأة, في هذه اللحظة الخاطفة, أن ما تتحدثان عنه قد سمعه من قبل, بخصوص ابنه أحمد, هذا الحوار السريع وهذه اللحظة الماثلة أمامه الآن, كأنه عاشها من قبل, رغم إدراكه باستحالة ذلك, لكنه أفاق من هذا الشعور المفاجئ, بعد أن فتح حنفية الماء على رأسه, أغلق الحنفية, وضع الفوطة على رأسه, ثم خرج وهو يفكر, ماذا سيفعل في الحارة الجديدة, بعد أن يبتعد عن (دكان) الشيخ إبراهيم العقاري, وبعد أن تعوّد على جيرانه سنوات طويلة. يفرش سجادته ويصلي, وهو يستمع إلى الأصوات في الخارج, زوجته وأولاده ينقلون الأثاث إلى السيارة, لكنه ما زال يشعر أن الحياة فقدت جاذبيتها, منذ بدأت ملامح ما يسمونه بالطفرة الاقتصادية, التي منحت الناس قروضاً لكي يبنوا بيوتاً جديدة في الأحياء الجديدة, وكان أول معالم هذه الطفرة, عندما اشترى جاره لابنه الصغير سيارة جديدة, كان يقودها في الحارة كأنه يقود لعبة, هذه الصورة لا تفارق مخيلته, لأنه

تجاوز الستين دون أن يتمكن من شراء سيارة مستعملة إلاّ قبل ثلاثة أعوام, لكن الأطفال الآن يقودون السيارات الصغيرة في الشوارع الضيقة, وكأن انقلاباً حقيقياً حدث في هذا العالم, ثم هذا الارتفاع المستمر لأسعار كل شيء, هل يتحمل المرتب الشهري المتواضع كل هذا.

فتحت والدته صندوقها الحديدي الكبير, فانبعثت منه رائحة غبار قديم, كان في الصندوق أكياس صغيرة لأعشاب, وزجاجة مربعة من العسل أحضرها شقيقها من تركيا, وجهاز راديو صغير استحال لونه البني إلى الأبيض وتقطعت جلدته, من هذا الجهاز تابع والده كل الأخبار, لكن بعد حضور التلفزيون, فقد هذا الجهاز قيمته وصار تحفة أثرية مهمة تحفظها والدته, جلست والدته أمام الصندوق, فتشت ملابسها القديمة, سقطت (صورة), رفعتها, رأت نفسها تتوسط أولادها في حديقة الحيوان, قبّلت أولادها ثم قبلت نفسها, ضحكت, وبدأت تجمع أشياءها استعداداً لنقلها إلى السيارة الكبيرة, التي تنتظر أمام المنزل.
الآن, يتحلق أطفال الحارة حول سيارة النقل الكبيرة, التي ستنقل أثاثهم, عائلات كثيرة من الجيران سبقتهم في الانتقال إلى العالم الحلم, لم يبق إلاّ القليل من الجيران الذين ينتظرون حظهم من (الطفرة), لترك هذه الشوارع الضيقة وبيوتها الطينية الآيلة للسقوط.
هؤلاء الأطفال المجتمعين من الشوارع الصغيرة القريبة, هم أنفسهم الأطفال الذين كانوا يتحلقون في السنوات الماضية, حول عربات تجرها الحمير كانت تتوقف أمام بيتهم, لإنزال أكياس الرز والشاي والسكر ومواد التموين, بعد عقود من الجوع, مرّ بها أهلهم, في مدن وقرى نجد, وشهدوا بقاياها في طفولتهم البائسة, لكن هذا الانتقال له ثمن باهظ, دفعوه من أوقاتهم ونفسياتهم المتعبة.

في هذه اللحظة التاريخية, تتوقف أمام بيتهم سيارة نقل حقيقية وليس حماراً, وسوف ينتقلون إلى الأرض الموعودة, لكن رأس خالد ما زال مشحوناً بالأسئلة الضاجة, حول هذا العالم الجديد الذي سوف ينتقلون إليه, من سيكون جيرانهم وبأية طريقة يتحدثون,

كيف يعيشون, هل ينامون في سطح (الفيلا), أم سوف يتعودون على نوم غرف المكيفات, هل سيأكلون (مثلاً) على طاولة طعام, كما يشاهدون في التلفزيون, أسئلة كثيرة بإجابات غامضة معلقة.

الآن بدأ يشم رائحة جديدة, بعد أن تم رش الشارع الترابي بالماء, رائحة قوية, كأنها تكسو جدران هذا الصباح بألوان طازجة, رائحة هي مزيج بهجة وخوف وترقّب, ومعها شعور بعيد وصغير, يسكن في مكان قصي من الذاكرة, بأن من سوف يخرج من هذه الحارة هو أحد سواه وليس هو, لم يصدق حتى الآن أنه سوف ينتقل إلى مكان آخر بعيد عن هنا, وكان يتساءل بعد هذا العمر: لمن ستبقى حارتنا هذه, في هذه اللحظة مرّ عمر ابن الجيران, يسأله عن شقيقه أحمد, قال له: إنه في الداخل, قال: ما شاء الله. إلى أين, وكان ينظر إلى سيارة النقل, قال خالد: كما ترى.. إلى البيت الجديد, قال: مبروك إن شاء الله, رد: الله يبارك فيك, ثم مضى عمر, وراح يتأمل خطوات هذا الشاب الصغير الملتحي بثوبه القصير, يتذكره صغيراً, وكان يراه قبل حوالي عامين, كل صباح في مخبز الحارة, ينتظر دوره, كان مرحاً ومحبوباً وله طلّة حلوة بدمه الخفيف, كان يسأله عن كرة القدم والأندية والشعر والأدب, الآن لا يتحدث هو وشقيقه أحمد, إلاّ عن الحلال والحرام, رغم أنهما لا يزالان في سن المراهقة. بدأت مشكلتهما حين لم يستطيعا إكمال دراستهما الإعدادية, بعض المتسربين من المدارس لجأوا إلى الدين, وبعضهم أخذته حياة السفر والمخدرات إلى أقصى درجاتها. يذكر مرة أن والده قال لشقيقه أحمد بعصبية: (نحن نعرف الله قبل أن تولد), وطلب منه أن يكف عن هذه الدروشة, ثم التفت إليه, كأنه يؤنبه على حياة السهر والانفلات.

خرجت أخته عفاف من البيت وهي تحمل حقيبتها السوداء الكبيرة, وبيدها جهاز التسجيل الخاص بها, تصدح منه أغنية خفيفة. لقد كبرت فعلاً وصار لها أشياؤها الخاصة, وضعت حقيبتها في السيارة, ثم غمزت له, وهو جالس على عتبة باب الجيران, مع ابتسامة خاطفة, كانت أكثرهم بهجة في الخروج من هذه الحارة.

يتذكرها طفلة بجديلة قصيرة, تركض معهم في صباحات العطلة الدراسية, إلى سوق الرياض القديم, بعد أن تتدفق العباءات السوداء في ذلك السوق الصاخب, نساء يبعن الخبز والتمر والحمام والتعاويذ والأقمشة, نساء ورجال في ذلك السوق الشعبي, يتداولون أساطير شعبية ومقولات قديمة علقت بغبار الوقت, يعرضون أشياء مسحوقة للمرضى, في أكياس أو علب فارغة لها رائحة الحناء وطعم اليانسون والحلبة, وكلها للمرضى, هؤلاء الذين فقدوا القدرة على مواجهة الحياة, إلاّ بأرواح سوداء ويأس وقلوب معذبة, يقرأون عليهم الآيات, وينفثون الهواء من صدورهن المتعافية على الصدور المريضة, التي تبكي آناء الليل وأطراف النهار.

امتلأت سيارة النقل, انطلقوا أمامها, تحركوا فتحركت هواجس كثيرة في داخله, يرى بيتهم يبتعد عنهم, ليس المكان فقط, لكنه يرى الوجوه والأحداث والصور تبتعد أيضاً, ويرى أشياء كثيرة تتساقط خلفه, يرى ذكريات وأحلاماً وأغاني وأحزاناً وأفراحاً, تاريخاً مزدحماً بصور تبتعد في لحظة صريحة.

وصلوا بيت الأحلام, أنزلوا الأثاث, بفرح متردد, لكن لا أحد حولهم, لا أصوات, ولا جيران, فقط أطفال قليلون, يجلسون بأدب على عتبات بيوتهم. كانت بيوت الجيران ساكنة, بأسوارها الشاهقة.

أدخلوا الأثاث إلى المنزل, غادرت سيارة النقل, بدأوا بوضع الأشياء في أماكنها, حتى داهمهم التعب, فناموا في صالة (الفيلا) الواسعة والمبعثرة الأثاث.

استيقظ باكراً وأمضى كل الوقت في غرفته الجديدة, غرفة حقيقة بجدران ملونة, لا أحد يشاركه في اتساعها, غرفة بنافذة زجاجية, بعثر تفاصيل حياته في وسطها, وبدأ يضع كل شيء في مكانه, حتى ذاكرته, قرر أن يضعها في أحد الدواليب مؤقتاً, ريثما يستعيد ذاته المبعثرة.

سَفَر الروح

كـان والـده أكثرهم إحساساً بالضـيق, ومـع مـرور الأيـام, بـدأ يتعـود قلـيلاً, علـى هـذا المكـان الجديد, لكنـه كـان يطلب من ابنـه أن يوصـله إلـى حـارتهم القديمـة, نهايـة كل أسبوع, يضعه أمام مكتب الشيخ إبراهيم العقاري عصر كل خميس, ثم يعود إليه بعد صلاة العشاء.

انقطع الأقارب عن زيارة والدته, إلا في المناسبات الهامة, لكنها تواصلت مع الجارات الجديدات, بينما لازال شقيقه أحمد, يجتمع مع بعض الشباب في مسجد الحي, أو يغيب أياماً طويلة عن البيت, ثم بدأوا في طبع الكتيبات, التي تحلل وتحرم, مع إطلاق أصوات مكبرات الصوت بالمسجد إلى أعلاها, ربما تعبير عن وجودهم.
بينما حبست أخته عفاف نفسها في غرفتها, تقضي الوقت في مذاكرة دروسها, أو النوم أو مهاتفة صديقاتها حتى تزوجت. وهكذا عصفت بهم رياح التحول, الهدوء والرتابة والملل, حلت مكان الضجيج والحركة والزيارات المتبادلة بين الجيران والأقارب, ليس بسبب تباعد المسافات بين الأحياء الجديدة فقط, ولكن لأن حياة الناس أنفسهم قد تغيرت, ليس من الداخل, لكن من الخارج, فالجميع تقريباً, بدأوا مشوار الركض لمواكبة التحولات الاقتصادية, فامتلأت الشوارع بالمشاريع الاستثمارية الصغيرة, مطاعم, مشاغل, خياطون, محلات فيديو, عمائر صغيرة, وامتلأت البيوت بالتحف من كل بلد, يتفاخر الناس بها, كما لو أنهم صنعوها.

يلاحظ كيف تحولت الرياض إلى ورشة عمل بلا إنتاج حقيقي, وفاقدة لأبسط ملامح الحياة الحقيقية, ركض متواصل, لا تدري إلى أين, شباب يلهثون خلف تجارة غير مضمونة, وشباب آخرون لم يعجبهم هذا الملل, فلجأوا إلى الدين, لكي يملأوا أوقات فراغهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, وبدأت الحكايات والقصص المثيرة تنطلق, من هذه الحياة التي فقدت روحها, حتى بدأوا يسمعون عن المشاريع التجارية الفاشلة وسقوط أناس كثيرين, وتحطم أحلامهم التجارية, وصعود آخرين إلى مراتب الأغنياء والوجهاء والأعيان, وكل ذلك يتم بضربات حظ تجارية, إما تضعك في أعلى السلم, أو تهوي بك أسفل سافلين. كان يقرأ في الصحف عن حكومات في جنوب شرق آسيا انطلقت ببلدانها, بينما هنا مكانك سر مع كل هذه الثروة, يتسابقون على السفر وشراء الأراضي وبناء القصور, أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. فقط.. هذا كل ما عملناه.
يذهب للعمل صباحاً, يعود في الثالثة ظهراً, يضع الصحف جانباً, يجلس ليأكل مع أهله, ثم يصعد لغرفته, يغير ملابسه, ثم يحاول النوم, في الغالب يظل يقظاً, يتقلب

في الفراش أكثر من ساعة, حدث هذا أكثر من مرة, على مدى أشهر, منذ أن سكنوا في هذا البيت, ولهذا صار يذهب إلى شقته, منتصف كل عصر, وأحياناً ينام هناك. ذات عصرية مغبرة, أفاق في بيت الأهل قبل المغرب بقليل, فرأى الهواء قد دار حول نفسه دورة.. دورتين.. ثلاثاً.. في هذه المدينة المتحجبة, فاستيقظ التراب الراقد منذ زمن, وبدأ يلاحق موجات الهواء الصغيرة التي تدور حول نفسها, اتسعت الدائرة, فارتفع التراب عموداً أحمرَ, أخذ مكاناً واسعاً في الفضاء الفسيح, على حدود المدينة, مدفوعا بريح أكثر يأساً, صارمة, بدأت تدور كأنها امرأة تبحث عن حب مفقود, الهواء يصارع نفسه في أعماق المدينة, يهب عليها من كل الجهات, كأنه يريد ابتلاعها بصفير حاد, غاضب وصارم, والتراب بغزارة يتساقط على الرؤوس المبهورة, يغطي أسطح المنازل والمساجد, يغمر فناء المدينة بالعتمة, ويتحرك إلى الجهات الأخرى, يعبر الشوارع والأرصفة, الحارات, وجوه الناس, يغمر الجدران, الأشجار, ومقابر الأجداد, يغمر كل شيء مدفوعاً برغبة ما غاضبة وكئيبة في جو رهيب. الرجال والنساء والشيوخ يركضون إلى مساكنهم مثل فئران مذعورة, يغلقون الأبواب والنوافذ بأصوات تتوحد في صندوق الذعر, غضب عارم من الله, حل بالمدينة الطيبة, لكن الأطفال وحدهم, ينسلون من مساكن آبائهم خفية, يركضون في الحارات, كأنهم يحتفلون بضيف المدينة, في مهرجان بهجة وشرود وخوف لذيذ, يرقصون في الحارات للذي دخل مدينتهم ممتلئ الفم بالكلام, يركضون في الشوارع وتحت الجدران, يزفون وقتهم إلى حرارة أخرى مكتنزة, عذبة وجريئة, في عرس كأنه موصول منذ آلاف السنين. الريح تتجه جنوباً تقود تراب المدينة, وتزيح بعضاً منه عن قرص الشمس, وتبدو في خروجها المهيب كما لو أنها عروس من النار, الأطفال ينفضون التراب عن شعر رؤوسهم وثيابهم وأصواتهم القديمة, يرشون الماء على التراب الذي بدأ في الركود أمام أبوابهم الوجلة, يعجنون الطين من جديد, يتذكرون أسماءهم القديمة وتواريخ ميلادهم, يرسمونها على الجدران, الجدران التي صارت أكثر بريقاً تحت شمس ساطعة وجديدة, في مرحلة جديدة.

بعد هدوء العاصفة دخل على والده, الذي وضع الجريدة جانباً وفوقها وضع نظارته, قال لوالده: غادرت العاصفة وهدأت الأمور, قال الأب: لازلنا في قلب العاصفة, ولا أظن الأمور سوف تنتهي.

بدأ يشعر أن والده مريض فعلاً, لأنه كان يسعل كثيراً, وكان تنفسه بطيئاً..

قال له: سوف نزور الطبيب, قال: ليس الآن, سأله: لماذا, قال: أنا الآن أفضل, وغداً الخميس نأخذ العمال لإكمال عملنا في بيت جدك. قال: حاضر.

في صباح الخميس أخذ والده وذهبا إلى بيتهم القديم, كان الشيخ إبراهيم العقاري, قد أحضر العمال, وبدأوا في الحفر والبناء, منذ الصباح الباكر, وظل والده يراقب عملهم حتى منتصف العصر, شعر بالتعب فاستراح على ورق من الكرتون المقوى ونام, حاول خالد إيقاظه بعد دقائق, لكنه لم يرد, وعلى الفور نادى على الشيخ إبراهيم, الذي جاء ومعه بعض الجيران الذين كانوا في مكتبه, فنقلوه إلى المستشفى, أمضى هناك ثلاثة أيام بالتنفس الصناعي, فقد بعدها روحه, ذهبت إلى سماء خالقها بكل هدوء وسكينة, بعد عصر يوم الغد توافد المعزون على بيتهم, جاءوا من حارات الرياض القديمة, ومن قريتهم, أناس عمل معهم والده سنوات طويلة. في مجلس العزاء كان خالد صامتاً, يتقبل العزاء مع شقيقه وأخواله حتى قال أحدهم: كان رجلاً طيباً رحمه الله, فرد عليه الآخر: سبحان الذي لا يأخذ إلى جواره إلا الطيبين, كاد يضحك خالد من هذه العبارة الأخيرة, لكنه تمالك نفسه, وهو يتساءل في نفسه: ماذا لو أن الله فعلاً لا يأخذ إلا أرواح الطيبين,.. كيف سيتفاهم البقية في هذه الحياة. استمر العزاء ثلاثة أيام, تعرفوا خلالها على الجيران في هذه الحارة, ثم عاد الهدوء بعد ذلك إلى البيت من جديد.

سافر شقيقه الصغير أحمد إلى أفغانستان وانقطعت أخباره, لهذا لم يذهب لشقته عدة أسابيع, واصل حياته ما بين العمل وبيت أهله, حاول أن يكون أكثر قرباً من والدته, رغم وجود خالته التي قررت البقاء في بيتهم بعد وفاة زوجها, وزواج أبنائها وبناتها, حتى ملّ هذا الروتين اليومي, فقرر في تلك اللحظة من صباح أحد أيام الخميس, أن يزيح ستارة النافذة بكاملها من غرفته, وأن يملأ غرفته بالنور والبخور, يفتح جهاز التسجيل, يرفع الصوت عالياً, يرفع صوته معه, يرقص, يدخل الحمام, ويخرج منه

منتشياً, يلبس ثيابه, يغني مع عبدالحليم حافظ, يغمض عينيه وهو يقدح من كأس قديم بشراهة, كأس بورقة النعناع التي يعرفها, ثم يخرج من غرفته مثل طير, يقبل رأس والدته, وشقيقته عفاف التي جاءت لزيارتهم ومعها ابنتها الصغيرة, ثم يودعهم كما لو أنه مسافر, يخرج إلى الشوارع, ينطلق بسيارته إلى جحره الآمن, بعيداً عن الوجوه المتلصصة ونظراتها المريبة التي تتربص بالجميع, في أركان الحارة, يملأ رئتيه بالهواء الطازج, ثم يعود إلى شقته, يستمتع بظلمة شارعها وهدوئه.

في هذا اليوم كان عراق صدام قد قرر أن يكون ضيفاً ثقيلاً على الكويت.

ثم توالت, الصور, والمسيرات الدينية, وانطلاق بعض النساء في مظاهرات انفعالية لقيادة السيارات, وكأن القدر المكتومة كانت بحاجة إلى غزو ما, لكي تُعبّر عن ذاتها, وأخيراً.. كانت صورة ضرب بغداد, كاتمة لأنفاس الجميع, وكانت أول خطوة, لاحتلال سافر لكامل المنطقة.

صورة غامضة

لا أحد يسأل عن شيء, في هذه الرياض.

تعوّدوا في هذه المدينة على رتابتها ولا مبالاتها وصمتها الضاج, وأن الجدران لها آذان..

صمت عميق يوحّد كل شيء..

يقابله ضجيج الشوارع والبيوت, ضجيج فج لا معنى له, في مدينة لا تعرف هل هي متدينة أم منحلة, مدينة لكن الذي في قلبها ليس على لسانها, مدينة تنام على ركام هائل من الكلام الذي لم يُقَلْ حتى الآن, مدينة كاتمة صوت, مثل (قدر) مكتومة, الرائحة تغلي منذ زمن في داخلها, الرائحة تريد أن تفوح, والناس ربما تعرف أن رائحة ما سوف يفوح في أجواء المدينة, وينشر المستور, بعد أن راكموا الكلام وناموا فوقه.

هل أحب هذه الرياض أم أكرهها?!

هل أنا سعيد فيها, أم شقي?!

هذه الأسئلة تذكّره بمدرس الدين:

السعيد يدخل الجنة, والشقي يدخل النار

السعيد كان يسمع كلام الله..

بينما الشقي يسمع كلام الشيطان.

لكن هذا المدرس المتحمس جداً, يفتح علبة سجائره, خلف سور المدرسة, يدخن واحدة ثم يعود لفصل آخر, يكرر درس السعادة والشقاء, وهو يحك فخذيه على حافة أول طاولة في الصف, طوال عمر الحصة.

بينما أحدهم في الحارة, قبض عليه, وهو يدخّن واحدة, من سجائره الأولى الممتعة, في أعماق الشارع الصغير الذي يقع خلف المسجد, صرخ في وجهه:

تدخن.. تدخن يا ابن (الزنوة).. لو يعرف أبوك.

ولهذا ظل يتساءل بعد هذه الحادثة عن العلاقة بين الزنا والتدخين, هل التدخين زنا أم أن هذا الشيخ قليل أدب?! لكن كلمة (زنوة) رنّت في رأسه, مثل نغم مرتعش,

رنّت طويلاً, وكان يود أن يصفعه, بينما ظلت وخزة الضمير, وصورة البنت أميرة والخوف, والذاكرة الضعيفة, تعذّب كيانه المريض.

لم يكن يتوقع أن يأتيه هذا السيل الهادر من المهاتفات الناعمة, حال استئجاره لشقة صغيرة بعد أن قبض على الوظيفة, واستقر أهله في الفيلا الجديدة, لم يكن يتوقع أن تفتح لـه هذه الشقة أسرار العالم الغامض لمدينة الرياض, كان في البداية, أيام الدراسة والجامعة, مثالياً حالماً, وظل كذلك مع هذه الأصوات الناعمة, بعد التخرج, حتى سقطت الحواجز النفسية بينه وبينهن شيئاً فشيئاً, فبدأ معهن مرحلة خجل مليء بالرغبة العارمة, ثم تكسرت كامل الحواجز, وظلت الأصوات الدافئة تتقاطر من كل مكان, فامتلأت أيامه بأنواع البنات, فعمل لهن تصفية بعد عامين من الفوضى, تبقى ثلاث فقط, يراهن نفسه على حبهن له, وبالذات (نجود) التي صارت تعتني به مثل زوجها, تأتي ظهر كل خميس, تنظف شقته وتسهر معه, ثم تغادر إلى بيتها, أما بقية البنات, اللاتي جئن من العالم السفلي لشارع الخزان فقد قطع معهن العلاقة نهائياً, بعد محاسبة طويلة مع الذات. نجود امرأة في الثلاثين مطلقة ومعها طفل واحد, تعرف عليها مصادفة في أحد الأسواق, لم يهتم بها كثيراً بادىء الأمر, لأنه رآها ابنة بطر, وحين عرفها جيداً بعد وقت, أدرك أنها إنسانة حقيقية وبسيطة, تخفي سخطاً, وإحساساً بالغربة وسط حياة أسرتها الرسمية, وهكذا تواصلت اللقاءات بينهما.
كان يشتري الصحف يومياً, يستمتع بقراءتها كل مساء, وأحياناً يفكر أن يكتب أو يرسم لكن لا يجد مزاجاً لهذا, كان يكرر أن التدخين والأكل أفضل عمل في هذا البلد, بعد ذلك أصبح يشتري جريدة واحدة فقط, حتى لا يكون معزولاً عن العالم, يقرأها على عجل, خصوصاً بعد أن ملّ عناوينها ومواضيعها المتكررة.
يريد أن يكتب من أجل تنشيط الذاكرة فقط, كما طلب منه الطبيب, حتى لا يأتي يوم يصبح فيه رجلاً بلا ذاكرة, أو يعد من الواحد إلى العشرة.

الأشهر والسنوات, تمرّ بصمت عظيم..
زيارات للأقارب والأصدقاء, أو انقطاعات مفاجئة..

الكل غرقوا في دوامة حياة, يجرفها الزمن من كل جانب.
يهرب إلى عاصمة عربية كل عام..
يحمل أمراضه المستعصية, ويسافر إلى كل مكان.
يذهب من أجل أشياء كثيرة, لكنه يسهر وينام فقط, ثم يعود.

حالات قلق, تصاحب الإحساس الواضح, أن البيت الحلم, والأسرة الحلم, والعمل الحلم, والمسرح الحلم, كلها ذهبت في مهب ريح سخيفة, ولهذا بدأ يفكر لماذا مات شقيقه في أفغانستان, ولماذا انتحر قبله في الحارة جارهم منصور, ولماذا تطل عليه, لحظات يشعر فيها بفكرة الانتحار على نحو غير جدّي, كأنه يجسّ نبض ذاته, ظل يعتبر موت شقيقه في أفغانستان جزءاً من انتحار جارهم منصور, وجزءاً من حالته البائسة الآن, والتي تحاول الآن البحث عن أميرة مهما كانت الظروف, من أجل أن يستكمل عقد صور حياته المتتالية, بغموضها وحيرتها ومخاوفها وشكوكها الدائمة.

يدخل من ضمنها صورة زوج أخته المسكينة عفاف.

كان هذا الرجل محايداً, ومتفائلاً, ومستقيماً مثل المسطرة, يقضي أوقاته في النوم والأكل والعمل كأنه من خارج هذا العالم الصاخب حوله, أحياناً يحسده, وأحياناً يشفق عليه, فهو ينام في التاسعة مساءً, ويصحو في السادسة صباحاً, يفطر ثم يذهب إلى عمله, يعود لتناول الغداء وينام, أحياناً يخرج من العمل إلى البيت لممارسة الجنس فقط, ثم يعود إلى العمل مرة أخرى, يحب الحكومة ويحب المال كثيراً, ويحب النساء أيضاً, ويرى أن كل شيء على ما يرام, كما يقرأ في الصحف, لكننا لا نشكر الله, ويرى أيضاً أن إسرائيل ابتلاء من الله واختبار لإيمان المسلمين. يذهب عصرية كل جمعة إلى حراج السيارات, يشتري سيارة ثم يبيعها الجمعة الأخرى, بعد أن يدخل عليها بعض التحسينات, فصار له دخلان, لكن حياته في بيته تشبه حياة الفقراء, لأن رائحة بخله وصلت للحارات المجاورة, كما أنه يستمع للموسيقى, ثم يقول إنها حرام. في الصيف يسافر إلى المغرب ويترك زوجته وابنته عند أهلها, حتى تعب من

هذه الحياة, فأطلق لحيته, واتجه إلى طريق آخر مليء بالمواعظ والأمر بالمعروف, كره الحكومة وظل يحب النساء ولهذا انطفأت عفاف, ووهبت حياتها لبيتها, وطفلتها التي تلمع في عينيها مواهب أمها.

فهل ستنطفئ هي الأخرى, كضوء صغير وتعيس, قبل أن يجد الوقت الكافي للإضاءة, كان هذا سؤال خالد, في آخر زيارة له لبيت أخته عفاف.

يأتي صديقه وليد نهاية كل أسبوع لزيارته, يمضيان معاً الخميس والجمعة بعد أن فقدا حرارة اللقاءات السابقة, وتبعثر الأصدقاء, وهدأت الأمور, وأصبح الناس أكثر انشغالاً بعد انتشار قنوات الفضاء والهواتف النقالة والأسواق المركزية الكبيرة والمقاهي.

قد تكون الحياة, مجموعة صور متتالية لا رابط بينها, سوى ما نحاول صنعه في علاقاتنا ببعض..

هذا ما وصل إليه حين تذكر (أميرة).. أين هي الآن ?

هل تزوجت رجلاً محايداً مثل زوج أخته عفاف, أم أن لها صديقاً مثل (نجود).

قبل أيام سأل أخته عن أميرة, قالت له: سمعت أنهم سكنوا في الحارة المجاورة لنا, بعد طلاقها, سألها: هل لديها أطفال, قالت: لا أعرف, في هذه اللحظة كانت ابنة عفاف, تتابع حوارهما بعينيها الصغيرتين واللامعتين فقط, بادل الصغيرة نظرة خاطفة وهو يردد في نفسه: لازلت كائناً مؤجلاً.

هكذا تتالت صور الحياة بانطفاءات متتالية..

انطفاء والده بالموت, وشقيقه بالانتحار في أفغانستان, وشقيقته بالزواج, وأميرة بالطلاق, ووالدته بأمراض الزمان, وهو تحول إلى ذاكرة على وشك النسيان, لكن طعم السكر لازال في لسانه قوياً, ويمنحه إحساساً صغيراً ومتفائلاً بالحياة, ويبعد مؤقتاً هاجس الانتحار.

صوت الصمت

في لحظات نادرة, تمر به, سريعة مثل برق, وعميقة مثل محيط, تدهمه تلك الرغبة الخاطفة في البكاء, فيسأل هذه الرغبة الروحية الجارحة, لماذا لا تأتين كثيراً, وتطولين قليلاً, لكي أقبض على بعض أسرارك..

صوت مشع يأتيه من الأزمنة القديمة, يطل برأسه كل مساء, يقول له بصوت هامس كن أنت وليس أحداً سواك.

يشعر, الآن, كما لو أنه يطل على العالم, من ثقب صغير في جدار بيته الصامت, كانت الظلمة تتكاثف, وكان يسمع أحاديثهم واضحة, يصمتون قليلاً, ثم فجأة, تأتي أحاديثهم من مكان آخر في البيت, ربما من غرفة الجلوس أو الصالة, وكان يرى نوراً ضئيلاً يتحرك أحياناً في أماكن مختلفة.
المكان الضيق جداً, الذي وجد نفسه فيه, أمام النافذة المفتوحة, على الفضاء الواسع بدأ يضيق أكثر, مختنقاً بدخان سيجارته, وأطرافه استكانت بجانبه, تمتد عيناه إلى دولاب الصالة الخشبي, يتذكر أوراقه وكتبه ومشاريعه الصغيرة المؤجلة, تغفو أحلامه قليلاً, ليسمعهم بهدوء يخرجون من بيته واحداً إثر الآخر, وهو يرى أنه تحول إلى ثقب صغير في جدار قديم, يبحث عن أعضائه التي اندثرت, يشعر أنه على وشك التبخر قطرة.. قطرة, بدأت منذ لحظة ولادته, وحتى الآن, بعد أن سمع تلك الأنات الخافتة القادمة من أغوار سحيقة في صدره, فيرى معها, أنقاض أرواح, وأنقاض أحلام, وأنقاض نضالات مؤجلة, وأنقاض أشياء كانت زاهية, وأنقاض أسئلة, وأنقاض خوف قديم, من كل الآباء, من المستقبل, من وخزات الضمير.

للمرة الألف تعتريه رغبة في الصمت, والتوحد, مع صمت الأشياء حوله, يكسر كل العادات: أريد أن أستمع إلى موسيقى جميلة تعيدني طفلاً, أو شاباً مريضاً بالحب, أو مسافراً في غربة طويلة, أو تائهاً في صحراء لا أعرف اتجاهاتها, أريد أن أنام بهدوء الطيور لا أحلم بشيء, ولا أثقل رأسي بالتفاصيل.

أحتاج إلى وقت نبيل, عميق وهادئ, وامرأة تهرب معي, حين أريد أن أركض في كل الجهات, وتظل معي حين أريد العودة إلى ركني المعزول, وصديقاً لا يطعنني في الظهر, وقلماً أسجل فيه هزائمي وانتصاراتي.
أريد أن أكون لوحةً, سؤالاً, حلماً, طفلاً ضالاً في شوارع مدينة واسعة يبحث عن امرأة قديمة, تعلّمه كيف يظل واضحاً مثل ماء, ونقياً مثل قلوب الفقراء.

يراقب هواجسه وهي تلهو فوق طاولة المكتب, لم تغامر بالنزول, ولم تغامر بالتحليق عالياً, هواجس مثل سحب صغيرة خجولة, تستنشق هواء الغرفة, تسأل: أي أمراض تتركون الآن لأطفالكم أيها الفاسدون.

في نوماته القلقة يراهم بعيون حمراء, يأكلون الشوارع, بعيونهم الجائعة, يراهم يحصون أموال الناس ويتضاحكون عليهم, يسرقون كل شيء أمامه, ثم يراهم ذات مساء ثقيل يتكاثرون حوله, فيصحو هلعاً, ويطردهم من غرفة نومه.

كانت بعض الأصوات, في مثل هذه النومات القلقة, تأتيه مروّعة وعارية وكئيبة, أصوات تأتي من البعد, توقظه وتسافر به, ليرى آباءه وأجداده القدماء يتجولون في شوارعه الصغيرة, ويتأملون في سحنات وتعابير وجوههم, ويتساءلون عن أحوالهم, وهو يرى ذلك الشعور العميق بالرغبة في الصمت يتكالب على وقته, لكي يستعيد صورة لا زالت مشوشة لذلك البيت الصغير الذي تركه, كانت على ملامحه آثار أطفال, رسومات على ورق أبيض, نخل, خيام, جداول زرقاء, عود موسيقى, أقلام رصاص, طائرة, ثم نجمة تدور في فضاء الغرفة منذ زمن طويل, وعلى الجدار الآخر, وجوه بعيدة تمشي في صحراء واسعة, وآثار أقدام لشعراء نجد الجاهليين, لم تدفنها الرياح.

يريد أن ينام بهدوء الطيور, لا يحلم بشيء, ولا يثقل رأسه بالتفاصيل, يقرأ ويكتب كل يوم أغنية جديدة, عن طعم لسكر قديم لازال في لسانه.

حين انتهت أوراق الدفتر الأزرق, وجد أن الموسيقى, النغمة المرتعشة, طاغية على مفردات الكلام, وأن الصمت كان سيد المواقف, والخوف متربعاً في كل ركن يوزّع شكوكه, والحقيقة الهاربة التي طاردها, لم تزل هاربة.

ترك أوراق الموسيقى والحزن والموت والأسئلة, وخرج إلى الحارات يبحث عن الحقول الغائبة, وعن الحارات التي تبدو مثل سفن ثملة, وحولها الأسماك العمياء الحزينة.

يكتب الآن على الجدران, أنقاض أحلام, يكتب على حصى طرق نجد العتيقة, أنقاض أسئلة, وكتب الإهداء إلى شقيقته عفاف..

لا.. يا عفاف, لست مريضاً, أنا فقط أختنق بريقي, أحياناً, وسط النوم, أصحو هلعاً أشرب نصف كأس الماء جواري, وأعود إلى النوم (يضحك), لكن هل لا زلت سمكة حزينة..

– نعم (تضحك).

يقول لها بصوت عالٍ, من خلال الهاتف:

– أنت أول من نبهني إلى أغنية (وين الملايين) هل تذكرين.. أنا قادم إليكِ.

ينطلق الآن إلى غرب الرياض:

أنا لست مريضاً ربما, صحيح تحسن وضع الذاكرة, لكن لا زلت قلقاً في نومي, وقلقي يمكن أن أرفع منه, حتى يتجاوز طول قامتي, هل فهمت يا عفاف, بعد ذلك أتجاوز الأيام السوداء, ثم أفكر بالزواج, كما تريدين, يجب أن أتدرب على حياتهم جيداً.

هل تفهمينني يا عفاف, لسنا أسماكاً عمياء وحزينة فقط, نحن جميعاً كائنات مؤجلة, لا أريد أن أموت الآن, أريد أن أظل بصحبتك, كائناً مؤجلاً يا أجمل نساء العالم.
يخرج, مرتبكاً, يرفع كفيه, في الطريق, لا يزال يرى في أظافره شكلاً لأبيه الذي في الممرات البعيدة, أبوه الذي في الدروب القديمة, يحني رأسه وتاريخه للأشياء, بينما فكرة انفصال الروح عن الجسد, ترنّ في رأسه بعمق.